THE LONDON SCHOOL OF ECONOMICS AND POLITICAL SCIENCE

CONFLICT RESEARCH PROGRAMME

Research at LSE

برنامج بحوث النزاعات

السويداء: ديناميات الصراع وجذوره ودور المجتمع المدني

تيم زيدان

6 كانون الثاني/يناير 2020

حول برنامج بحوث النزاعات

يهدف برنامج بحوث النزاعات إلى فهم الأسباب وراء صعوبة إنهاء العنف المعاصر، وتحليل الاقتصاد السياسي المرتبط بالعنف، وذلك بهدف الإغناء المعرفي لعملية وضع السياسات. ويسعى البرنامج لتركيز أبحاثه حول العراق وسوريا وجنوب السودان والصومال وجمهورية الكونغو الديمقراطية.

يركز برنامج بحوث النزاعات في سوريا على خمسة مواضيع بحث مترابطة هي: وظيفة السلطة وشرعيتها، وسياسات الهوية، والدوافع الاقتصادية للنزاعات، والمدنية وإعادة الإعمار.

يستخدم البرنامج منهجيات متعددة باستخدام المصادر الأولية والثانوية. ويتعاون مع مركز أبحاث الحوكمة والتنمية.

حول المؤلف: تيم زيدان هو باحث وناشط في مجال حقوق الإنسان مقيم في السويداء.

إن الآراء المعبر عنها في هذا البحث هي آراء المؤلفين، ولا تمثل بالضرورة آراء كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية (LSE).
يصرح باستنساخ مقتبسات من هذا البحث مجاناً ومن دون إذن كتابي؛ شريطة الإشارة إلى المصدر الأصلي مع ذكر العنوان الكامل للبحث واسم المؤلف وتاريخ نشره وذكر LSE وبرنامج بحوث النزاعات.

جدول المحتويات

1 تمهيد 5
1.1 الواقع الاقتصادي 7
1.1.1 بعد 2011 8
1.2 التغيرات السكانية 10
2 خارطة القوى في محافظة السويداء 11
2.1 السلطة الدينية 11
2.2 السلطة الاجتماعية (الزعامات التقليدية – الوجهاء– الزعامات العائلية) 13
2.3 المؤسسات الحكومية (الخدمية) 15
2.3.1 قطاع الصحة 15
2.3.2 قطاع التعليم 17
2.3.3 القضاء 19
2.4 القوى العسكرية (ميليشيات – فصائل مسلحة) 20
2.4.1 الميليشيات الموالية للنظام 20
2.4.2 فصائل الحماية الأهلية والفصائل التابعة لرجال الدين 21
2.5 الأحزاب السياسية 23
3 المجتمع المدني ومحدّدات تشكّله 24
3.1 الخلفية الدينية 24
3.2 بين العشائرية والانتماء الطائفي والانتماء الوطني (القومي) 25
3.3 دور أبناء محافظة السويداء في صياغة تاريخ سوريا المعاصر 25
3.4 سياسات الهوية في مواجهة الحراك المدني 26
4 المجتمع المدني (التحديات – الدور) 28
4.1 تحديات المجتمع المدني في محافظة السويداء 28
4.2 الأدوار التي لعبها المجتمع المدني في محافظة السويداء 30
4.2.1 الموقف من فوضى السلاح 30
4.2.2 حماية السلم الأهلي 31
4.2.3 الدور الإغاثي (النزوح وآثاره) 32
4.2.4 في المناصرة وكسب التأييد 33

4.2.5 في الوساطة والتفاوض وحلّ النزاعات 34
4.2.6 مشاريع سبل العيش 35
4.2.7 التعليم والأطفال 35
4.2.8 المرأة (تمكين – مناهضة العنف) 35
4.2.9 التماسك المجتمعي وبناء السلام 36
5 خاتمة 37

1 تمهيد

إلى الجنوب من العاصمة دمشق تقع محافظة السويداء، تحدها محافظة ريف دمشق من الشمال، ومحافظة درعا من الغرب، والبادية السورية والصفا من الشرق، والمملكة الأردنية الهاشمية من الجنوب، ويمتد طولها من الشمال إلى الجنوب قرابة 120 كم وعرضها من الغرب إلى الشرق قرابة 66 كم.
تبلغ مساحتها 6550 كم^2، مناخها جبلي بارد شتاءً ومعتدل صيفاً بسبب ارتفاعها، حيث يصل ارتفاع أعلى نقطة فيها (تل قنية) إلى 1680 متراً عن سطح البحر، وتضم المحافظة بشكل رئيسي جبل حوران[1] أو جبل الدروز

بلغ عدد سكان محافظة السويداء في عام 2018 قرابة 547000 نسمة[2]، غالبيتهم العظمى من طائفة الموحدين الدروز ويشكلون ما نسبته 91% من السكان، ويشكل المسيحيون نسبة 3%، والمسلمون السنة 6% وهم من أصول بدوية يعمل معظمهم بالرعي واستقروا مؤخراً في منازل ثابتة ضمن تجمعات سكنية على أطراف المدن والبلدات أو ضمن قرى مستقلة[3].
ويعيش عدد كبير من سكان المحافظة في المدن الرئيسية إذ يقطنها ما يقارب37% من إجمالي السكان، وقد زادت الهجرة إلى المدن الرئيسية في العقود الماضية إثر انخفاض معدلات الهطولات المطرية والجفاف وخروج العديد من القرى خارج خط المطر وبشكل خاص في الريفين الشرقي والجنوبي الشرقي، في ظل غياب شبه تام للتنمية الاقتصادية وانحسار فرص العمل، وقلة الموارد وضعف في مستوى الخدمات.

تاريخياً استوطن الأنباط جبل حوران، وبقي الجبل مأهولاً ومزدهراً خلال العهود اليونانية والرومانية والبيزنطية حتى نهاية العهد العباسي، وكان يطلق عليه وقتها جبل الريان الذي يعني "الأرض الخصبة". أما في العصور الوسطى فقد بقي الجبل شبه خال من السكان، إذ كانت تقطنه جماعات من البدو الرحل بشكل متقطع وغير مستقر، إلى أن بدأ استيطانه في العصور الحديثة من أواخر القرن السادس عشر عبر موجات هجرة متلاحقة من حلب وأنطاكية، وفي أوقات لاحقة من جبل لبنان وشمالي فلسطين.

---

[1] جبل حوران: تسمية عبرية تعني الكهوف والمغاور، أما تسمية جبل الدروز فقد استثمرها الانتداب الفرنسي لاحقاً واستعملتها الدبلوماسية الفرنسية بشكل رسمي ضمن سياق ذريعتها الإنسانية أمام عصبة الأمم آنذاك، وهي حماية مسيحيي الشرق والأقليات، فكانت دولة جبل الدروز التي أعلن استقلالها في 1921/4/5 والتي رُفِضت من قبل سلطان الأطرش ورجالات الثورة السورية الكبرى 1925. وقد أتى الرد حاسماً بعد ذلك برفض هذه التسمية وهذا التقسيم بعد توقيع معاهدة الاستقلال عام 1936. تأسيساً على قناعة مستمرة عند الدروز حتى وقتنا الحالي مفادها أن مصلحتهم تكمن في الهوية الوطنية الجامعة، وهو ما تترجمه مقولة سلطان الأطرش القائد العام للثورة السورية الكبرى: "الدين لله والوطن للجميع"، كرسالة واضحة لجميع السوريين برفض تطييف الثورة، وبأنها ثورة السوريين جميعهم. وهذا ما أكده فارس الخوري عام 1938 في إحدى جلسات البرلمان السوري عندما قال: "إن هذا الجبل كان وما زال موطناً للعرب كل العرب، وحري بنا أن نسميه جبل العرب بدلاً من جبل الدروز". وقد أطلق هذه التسمية الصحفي الأردني عجاج نويهض في حفل استقبال الأطرش والثوار العائدين من المنفى في سينما البتراء في الأردن عام 1937.

[2] بحسب مكتب دعم القرار في محافظة السويداء.

[3] قرى مثل الشقرانية والمقوس.

إن الطبيعة الجبلية الوعرة ذات الصخور البركانية لجبل حوران، وخصوبة الأراضي الزراعية وخصوصاً في القسم الجنوبي الغربي والجنوبي؛ شكّلت تاريخياً ملاذاً آمناً لقاصدي المنطقة من الدروز في هجراتهم من لبنان أواخر القرن السابع عشر 1685 على خلفية الصراع بين اليمانيين والقيسيين[4] من جهة، وللتخلص من تسلط العثمانيين من جهة أخرى، وبعدها تأتي الهجرة الثانية وهي أكبر موجة نزوح على خلفية أحداث 1860[5] وقيام ما يعرف باسم متصرفية جبل لبنان عام 1861، وهذه الهجرة الكبيرة هي التي أعطت جبل حوران اسم جبل الدروز للمرة الأولى. إذ بدأت هذه التسمية تظهر في بعض المراسلات العثمانية لتقوم الدبلوماسية الفرنسية باعتمادها بشكل رسمي حتى عام 1936.

إن ما جعل هذه المنطقة (جبل حوران) مقصداً أساسياً للهجرة هو إيمان الدروز بضرورة التجمّع في طائفة شديدة التماسك، كخط دفاع أساسي يجمع السلالات في منطقة جغرافية واحدة، وسط محيط يزدحم بالصراعات الإثنية، متسلحين بفطرتهم الاستقلالية الشديدة ضد أي حكم خارجي، وباتوا يشكّلون ما يُعرف بالفلاحين المسلحين، الأمر الذي جعلهم بعد وقت ليس بالطويل طرفاً وازناً في مسرح الأحداث السياسية السورية، وحاسماً في مراحل لاحقة ومفصلية. ولا سيما بعد خديعة سامي باشا الفاروقي 1910 وإعدام عدد من زعماء الدروز، الأمر الذي جعلهم مصدر إلهام للحركة الوطنية والقومية الناشئة كما ستعرض هذه الورقة لاحقاً.[6]

إلاّ أن قلة مساحة الأراضي القابلة للزراعة، والطبيعة الجبلية التي جعلت من العمل بالزراعة أمراً شاقاً وصعباً؛ خلق تهديداً من نوع آخر لقاطني المنطقة الذين نزحوا إليها بحثاً عن تأسيس حياة جديدة، وهو تهديد الأمن الغذائي، الذي عززه تدني معدلات الأمطار (350 ملم سنوياً)، وندرة موارد المياه والمراعي، الأمر الذي أدى إلى اندلاع معارك ضارية استمرت

---

[4] أحد أهم الانقسامات للقبائل العربية بعد الفتح الإسلامي، حيث اصطفّت القبائل العربية في حلفين رئيسيين: قيسي وهم القبائل ذوات الأصول البدوية، ويمني يضم القبائل ذوات الأصول الحضرية. وبدورهم اصطف الدروز منذ القرن 16 بين القيسيين كعائلات هرموش وعلم الدين، ويمانيين كعائلات جنبلاط وأرسلان. وبلغ الشقاق ذروته في الصدام العسكري في معركة عين دارة 1711، والتي انتهت بانتصار ساحق لليمانيين الأمر الذي أفضى إلى تقاسم زعامة جبل لبنان بين عائلتي جنبلاط في المختارة وأرسلان في الشويفات.

[5] الحرب الأهلية اللبنانية أو ما يسمى بأحداث جبل لبنان بين الدروز والمسيحيين الموارنة، وقد استمرت 20 عاماً (1840– 1860)، وساهم تدخل الدول الأجنبية (فرنسا وبريطانيا وروسيا بالإضافة إلى الدولة العثمانية) في تأجيج الصراع واستمراره لوقت طويل، ورغم الغلبة العسكرية للدروز في نهاية المطاف؛ فإنهم كانوا الخاسر الأكبر سياسياً وتمت معاقبتهم بشدة، حيث نُفي 1500 من زعماء الدروز، وخسروا قسماً كبيراً من أراضيهم في الجبل، فضلاً عن الاضطهاد الطائفي ضدهم. وتم إنشاء ما يسمى متصرفية جبل لبنان وتقسيمها إلى سبعة أقضية؛ ستة منها للمسيحيين، وواحد للدروز ممثلاً بآل أرسلان، مقره الشويفات. وهذا الأمر هو ما تسبب فعلياً في نزوح الآلاف إلى جبل حوران.

[6] بعد سلسلة طويلة من المعارك وبالنظر إلى الخسائر الكبيرة في الأرواح والممتلكات وتدهور الزراعة؛ وافق الدروز على إبرام معاهدة صلح قدمها الوالي التركي في دمشق سامي باشا الفاروقي عام 1910، ليتضح أنها خديعة فتم استدراج زعماء الدروز ليقوم بإعدامهم جميعاً في حي الميدان الدمشقي، وكان من بينهم والد سلطان الأطرش.

لعقود طويلة مع العشائر البدوية المعتمدة على الرعي بشكل أساسي، حيث استمرت الصراعات قرابة 200 سنة، بتحريض من السلطة العثمانية[7] ودعم وتمويل في بعض الأحيان من الحركة الوهابية على خلفية طائفية.[8]
وقد توقفت المعارك بعد إبرام صلح 1912[9] بيد أن روايات تلك المعارك –عبر الأدب المتناقل شفوياً– باتت جزءاً مهماً من الذاكرة الجمعية للأجيال اللاحقة، ومخزوناً وجدانياً رئيسياً في اللاوعي الجمعي يتمحور حول ضرورة الحفاظ على الأرض واستلهام مآثر الأجداد، ولكن ذلك أفضى في الوقت ذاته إلى تساكن مشوب بالتوجس بين الدروز وعشائر البدو المحيطة بالجبل، لتصبح العلاقة بينهما قابلة للانفجار في أية لحظة، ومثال ذلك ما يطلق عليه مجزرة عام 2000 أو أحداث البدو، التي راح ضحيتها 23 شاباً وأكثر من 68 جريحاً جراء تدخل الجيش لقمع الاحتجاجات التي عمّت شوارع المحافظة بسبب قتل أحد شيوخ البدو شاباً من الدروز إثر خلاف نشب بينهما بسبب الرعي في المناطق الزراعية.

أما الصدام الأكبر الذي عاشه الدروز فكان مع الدولة العثمانية، ابتداءً من رفض التجنيد وتسليم السلاح، حيث حاربوا ضد إبراهيم باشا المصري 1832–1838، الذي فشل في إخضاعهم وضمهم للقتال عندما أراد احتلال سوريا، وانتهاء بصد الحملات العثمانية المتلاحقة منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى عام 1910. وقد فاز الدروز في نهاية المطاف بعد سلسلة طويلة من المعارك راح ضحيتها عشرات الآلاف، واستطاعوا بعدها الحفاظ على وجودهم والبقاء في مناطقهم من دون الخضوع المباشر لأية سلطة مركزية خارجية.

1.1 الواقع الاقتصادي

تعتبر السويداء متحفاً طبيعياً لما تملكه من أوابد ومواقع تاريخية حيث يتواجد على أراضيها أكثر من 700 موقع أثري حسب تصنيفات الأمم المتحدة، ولها طبيعة غنية ومناخ معتدل هيّأها لأن تكون قبلة للاستثمار السياحي الذي بدأ بالتدهور تدريجياً مع تطوّر الصراع في سوريا، والذي أدى إلى توقف النشاط السياحي والاستثماري في المنطقة.
تشكِّل قوة العمل البشرية حوالي 72% من عدد السكان، وهي الشريحة العمرية التي تتجاوز 15 عاماً من الذكور والإناث، يعمل منهم 34% فقط في المجالات الآتية[10]:

[7] كانت الدولة العثمانية تسعى لتوطين البدو في حوران وشمالي الأردن، لتأمين خطوط التجارة والخط الحديدي الحجازي من هجمات عصابات السطو المتكررة.

[8] عام 1810 شنت جماعات وهابية قادمة من السعودية هجوماً على جبل حوران بمشاركة بعض العشائر البدوية من شمالي الأردن بهدف معلن هو سرقة القمح، ولكن أيضاً بدوافع دينية تتعلق بطبيعة الحركة الوهابية التوسعية، واستطاع الدروز صدّ الحملة في معارك شرسة على الحدود الشرقية للجبل.

[9] أنهى صلح 1912 حالة الاحتراب الطويلة بين الدروز وعشائر البدو، وتم في بيت عبد الغفار الأطرش في السويداء بحضور ممثلين عن شيوخ عشائر البدو كالسردية والرولة وبني صخر وغيرهم، وتم الاتفاق على تحديد مناطق الرعي للبدو، وتبعه استقرار لمجموعات سكانية من البدو في الجبل ضمن قرى ثابتة كالشقرانية والمقوس وغيرها.

[10] بحسب المجموعة الإحصائية لعام 2017، متوفرة على الرابط: http://cbssyr.sy/

القطاع	عدد المشتغلين	النسبة المئوية
زراعة	9867	11%
صناعة	7617	8%
بناء وتشييد	13510	15%
فنادق ومطاعم	12162	14%
نقل ومواصلات	6890	8%
مال وتأمين وعقارات	2598	3%
خدمات	34583	41%
المجموع	87227	100%

علماً أنَّ معظم سكان ريف المحافظة يعتمدون في معيشتهم على النشاط الزراعي بشقيه (النباتي والحيواني) حيث يعتبر النشاط الزراعي أهم مصدر للدخل والمعيشة. وتعتبر تحويلات المغتربين من الخارج المصدر الثاني لدخل الأسرة بعد أن كان ثالثاً قبل 2011, ويعود ذلك للزيادة الكبيرة التي طرأت على معدلات الهجرة، وإلى الانخفاض الكبير في سعر صرف الليرة السورية أمام القطع الأجنبي؛ فبعد أن كانت تعادل نحو 50 ليرة لكل دولار قبل عام 2011، وصل سعر الصرف أمام الدولار إلى أكثر من 600 ليرة في عام 2016، لتخسر بذلك نحو 90% من قوتها الشرائية[11].

أمّا المصدر الثالث لدخل الأسرة في محافظة السويداء فهو من الوظيفة في القطاع العام الحكومي والوظائف في القطاع الخاص، حيث يبلغ عدد الموظفين في القطاع العام حوالي 27000 موظف وحوالي 14000 موظف في القطاع الخاص. بيد أن هذا المصدر فقد جدواه اليوم وانخفضت فعاليته بنسبة فاقت 75% مقارنة بعام 2011 بسبب التضخم الحاصل والذي بلغ 1200%.[12]

1.1.1 بعد 2011

لم تكن محافظة السويداء بمنأى عن الأزمة التي تمر بها البلاد حيث ألقت بظلالها عليها، لا سيما أنها تعاني من ارتفاع نسبة الفقر وتردي الواقع الاقتصادي منذ ما قبل عام 2011 بسبب ضعف معدلات التنمية الاقتصادية، وندرة الموارد الطبيعية وانتشار البطالة بين صفوف المتعلمين، والعائد المادي المحدود من التعليم، بحسب بيانات المكتب المركزي للإحصاء حول مسح قوة العمل في جميع المحافظات السورية خلال النصف الأول من عام 2010 لكل محافظة على حدة. وقد أشارت البيانات[13] حينها إلى أن "السويداء هي الأكثر بطالة بين المحافظات السورية حيث بلغت قوة العمل 460,104، منهم 284,85 مشتغلاً بنسبة 81.7% يقابلهم 159,19 متعطلاً بنسبة 18.3%".

[11] https://bit.ly/2OUAQDu
[12] https://bit.ly/38cdL6S
[13] https://bit.ly/33R9NgW

ومع بداية تشكل فصائل المعارضة المسلحة وتدفق السلاح في النصف الثاني من عام 2011 كانت السويداء وفي ظل الواقع الاقتصادي المتردي سوقاً رائجة للتهريب وتجارة السلاح والمخدرات، وبدأت تظهر ولأول مرة عصابات منظمة، كان لها أثر كبير وواضح في المحافظة، بدءاً من سيطرة هذه العصابات على مجمل مناحي الحياة الاقتصادية وإتجارهم بالسلع الأساسية للمواطنين (المازوت والبنزين والغاز والمواد الغذائية الأساسية)، مروراً بعمليات السطو المسلح والنهب ووصولاً لعمليات الخطف والإتجار بالبشر. ولا يمكن إغفال مصادر الدخل تلك بالرغم من عدم شرعيتها، ولكن، وعلى حجمها الكبير، ليس ثمة أية أرقام أو إحصائيات فعلية يمكن أن نركن إليها أو نستطيع تخمينها, لكن من المهم توصيف أثرها ومآلاتها، والتي تمثّلت في خلق حال من الفلتان الأمني، وانعدام الأمان، ما رفع وتيرة الهجرة بشكل غير مسبوق، خصوصاً بعد استفحال ظاهرة الخطف مقابل الفدية المالية والتي بدأت في شباط/فبراير 2013 باختطاف الشاب ناصر عادل جمول، الذي وجد مقتولاً بعدما فشلت المفاوضات من أجل استرجاعه من عصابة الخطف التي طلبت من ذويه مبلغاً مالياً قدره عشرة ملايين ليرة سورية، الأمر الذي أدى إلى نشوب حركة احتجاجات[14] كبيرة، حمّلت الأجهزة الأمنية المسؤولية عن خطفه وقتله نتيجة تقاعسها عن تحمل مسؤولياتها. وتزايدت عمليات الخطف لتصل في عام 2017 إلى 31 حالة شهرياً،[15] وتقدّر مصادر أن حجم الفديات المدفوعة في السويداء منذ بدء عمليات الخطف عام 2013 حتى عام 2017 تجاوز 1.3 مليار ليرة.[16]

ومن نتائج هذا الوضع الجديد يمكن أن نلحظ عدة مظاهر منها:

أ- تفكك القيم والعادات الاجتماعية وانحدار القيم الأخلاقية، وانتشار الفوضى في كافة نواحي الحياة وعدم القدرة على ضبطها.

ب- استفحال ظاهرة اقتصاد الظل[17] والذي ظهر فعلياً بشكل واضح منذ عام 2005، مع التحول إلى اقتصاد السوق مترافقاً مع ضعف إمكانية المراقبة وغياب المحاسبة والفساد المالي والإداري وما نتج عنه من مراكمة لثروات غير مشروعة نتيجة أعمال التهريب والعمالة غير القانونية واستغلال موارد الدولة في مشاريع غير قانونية، حيث تشير التقارير التي أوردها النائب السابق لرئيس مجلس الوزراء للشؤون الاقتصادية عبد الله الدردري إلى أن القطاع غير المنظم يشكل 40% من حجم الاقتصاد السوري،[18] بينما يذهب معاون وزير الاقتصاد والتجارة السوري غسان حبش إلى أن النسبة أعلى من ذلك وقد تصل إلى60%.[19] وقد أدّى ذلك كله إلى بروز شريحة اجتماعية انتهازية محدثة نعمة كرّست سلوكيات إجرامية وغير أخلاقية في المجتمع.

---

[14] http://www.youtube.com/watch?v=kJNUROXtS2U
http://www.youtube.com/watch?v=Yx8uclk6oFI

[15] https://bit.ly/2PeSzos

[16] https://bit.ly/2Lq2zdi

[17] اقتصاد الظل: هو مجمل الأنشطة الاقتصادية غير القانونية التي تتم خارج دائرة التشريعات التي تضعها الدولة ولا تلتزم بمعاييرها، وذلك بغض النظر عن كونها أنشطة مشروعة أخلاقياً واجتماعياً أم لا.

[18] https://bit.ly/2LqeDeB

[19] المصدر السابق.

ت- وجود هذه المجموعات أدى إلى عزوف أصحاب رؤوس الأموال من أبناء المحافظة وتراجع الحركة الاستثمارية، وينطبق هذا على العقارات حيث تراجعت حركة البيع والشراء بسبب مخاوف الناس من عمليات السلب والسرقة.

ث- ظهور فئة شديدة الثراء مما أدى إلى ازدياد الفجوة بين طبقة الأغنياء والفقراء، وانحسار شديد للطبقة الوسطى الحاملة للمجتمع والتهديد بانهيارها.

1.2 التغيرات السكانية

عرف عدد سكان محافظة السويداء زيادة كبيرة إثر موجات النزوح التي حدثت بعد عام 2011، والتي تزايدت باطّراد مع تزايد وتيرة العنف والحصار في عموم مناطق الصراع وخصوصاً في محافظتي درعا وريف دمشق، حيث تركز النازحون بشكل رئيسي في مدينتي السويداء وشهبا.

وبلغ النزوح إلى المحافظة ذروته في عام 2013، إذ قُدّر عدد النازحين بـــ 300 ألف نازح بحسب العاملين في المنظمات الإغاثية، في حين بلغ عدد المستفيدين والمستفيدات من المساعدات الإنسانية بحسب قوائم منظمة الهلال الأحمر في ذروته قرابة 95 ألف مستفيد ومستفيدة، كانوا قد نزحوا من مختلف المحافظات السورية، وبشكل خاص من محافظتي درعا وريف دمشق والأحياء الجنوبية للعاصمة دمشق. ويوضّح المخطط المرفق نسب النزوح من المحافظات، والمأخوذ عن تقرير منظمة (بيتي أنا بيتك) الصادر بتاريخ 2013/7/15.[20]

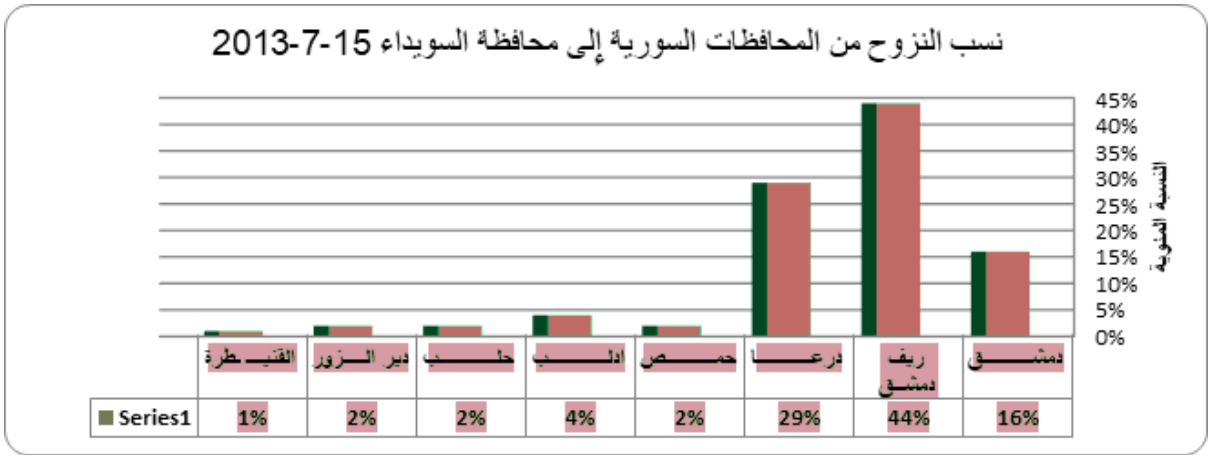

تزامن ذلك مع حركة نزوح داخلية كبيرة من ريف السويداء باتجاه المدن الكبرى بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية من جهة، ومن جهة أخرى بسبب التهديدات الأمنية على أطراف المحافظة الشرقية وخاصة في قرى السالمية والحقف (أماكن تواجد تنظيم الدولة الإسلامية/ داعش)، والتهديدات على الحدود الغربية المتاخمة للريف الشرقي لدرعا والمسيطر عليها من قبل عدة فصائل مسلحة أبرزها جبهة النصرة وألوية العمري التي دعمت مجموعات مسلحة من البدو في معركة داما[21]

[20] https://bit.ly/2LFZNkr

[21] https://bit.ly/388EKQX

ودير داما في 2014/8/16 الأمر الذي أدى أيضاً إلى موجة من النزوح. وقد كان لحالة الفلتان الأمني وما تمخض عنها من ازدياد في حوادث الخطف والقتل في القرى الحدودية بشكل خاص؛ أثرٌ واضحٌ في زيادة معدلات النزوح الداخلي (ضمن المحافظة)، علماً أن تدفق الهجرة الداخلية من الريف إلى المدينة كان مستمراً منذ عقود بسبب ضعف التنمية في الريف السوري بشكل عام.

ولعل أكبر موجات النزوح الداخلي (ضمن المحافظة) كانت بعد هجمات داعش في تموز/يوليو 2018 على قرى الريف الشرقي من المحافظة، وارتكاب التنظيم مجازر مروعة راح ضحيتها أكثر من 260 قتيلاً ومئات الجرحى وأدت إلى نزوح حوالي 600 أسرة حسب نتائج فريق المسح الاجتماعي الذي تشكل على إثر تلك المجازر بمبادرة من منظماتٍ ومبادراتٍ وفرقِ عملٍ مدني في المحافظة.

2 خارطة القوى في محافظة السويداء

هنالك عدة جهات ومرجعيات في محافظة السويداء تعتبر بمجموعها مجمل القوى الفاعلة وصاحبة الأثر في المحافظة، سواء في علاقات الأفراد البينية أو علاقتهم بالسلطات الدينية والحكومية، وتتوزع هذه القوى بين مرجعيات محلية (دينية واجتماعية عائلية) وبين جهات حكومية رسمية وأمنية، وسوف نستعرض فيما يأتي هذه القوى بشيء من التفصيل:

2.1 السلطة الدينية

الرئاسة الروحية، أو مشيخة العقل، هي المرجع الأعلى للطائفة الدرزية في البلدان التي يقطنها تجمع كبير من الدروز. وهي مؤسسة تشبه في وظائفها ومهامها مؤسسة الفاتيكان عند المسيحيين، أو مشيخة الأزهر عند المسلمين السنة، وظهرت الحاجة لهذه الرئاسة في أوائل القرن الخامس عشر (الأمير بدر الدين العنداري) بعد بدء الصدام مع الحكم المسيحي في جبل لبنان (الأسرة الشهابية). وأصبح وجود مرجعية دينية درزية ضرورة سياسية واجتماعية في مقابل الكنيسة المارونية لدى المسيحيين. ورغم ابتعاد مشيخة العقل الدرزية من حيث جوهر العقيدة عن الشأن السياسي أو الاجتماعي (أي كل ما هو زمني في مقابل التفرغ لكل ما هو روحي)؛ فإن مآلات الأحداث والصدامات الحربية المتلاحقة لقرون تلت، جعلت منها مرجعية دينية وسياسية وعسكرية في آن واحد، وفُرِض عليها الدخول كطرف وازن، بوصفها أحد اللاعبين الأساسيين في حلبة الصراع الدائر بين الدول العظمى حول لبنان.

أما في جبل حوران في سوريا، فإن أول من دعا إلى تنصيب شيخ عقل للطائفة كان حاكم الجبل آنذاك حمدان الحمدان عام 1803، لكي يتولى شؤون الطائفة شخص موثوق، فوقع الاختيار على الشيخ إبراهيم الهجري لتميزه دينياً، وأصبحت بلدته (قنوات) مركزاً للرئاسة الروحية حتى اليوم. وبعد تغير الخارطة السياسية في الجبل مع موجات النزوح الجديدة عام 1860 وصعود نجم آل الأطرش؛ تم اختيار ثلاثة مشايخ آخرين يعملون معاً ومركزهم (عين الزمان)[22] في مدينة السويداء.

[22] مقر ومركز ديني، ومكان مقدس في مدينة السويداء.

وهو المقر الرسمي لشؤون الطائفة الدينية، وأطلق على المشايخ الجدد اسم (الرؤساء الروحيون)، ثم تغير ليصبح مشايخ العقل بحسب التسمية الحالية، وهم الشيخ الهجري وجربوع والحناوي، يتوارثون المنصب بين أولادهم غالباً أو ضمن الأسرة الواحدة من دون النظر في الكفاءة أو المعرفة الدينية أو الحضور الاجتماعي.

ولا بدّ من التنبيه إلى عدم وجود سلطة مطلقة لأحد لدى الدروز، وخاصة عند المواجهات الكبرى، الأمر الذي نجده في رفضهم لقرارات مشيخة العقل في أكثر من مناسبة ولعل أبرزها حينما وقفت مشيخة العقل إبان الانتداب الفرنسي ضد سلطان الأطرش في الثورة الأولى 1923، حيث وصل الأمر حدّ إصدار حرم ديني[23] لكل من يتعامل معه، بيد أن ذلك لم يمنع الآلاف من الاشتراك بالثورة بعد أيام من انطلاقها. وعلى الرغم من عدم امتلاك مشيخة العقل سلطة فعلية مباشرة على الناس؛ فإنّ وجودها وحجم تأثيرها كان دائماً مرهوناً بمدى قربها من سلطة حاكمة وقوية، سواء كانت سلطة عائلية أو مركزية خارجية.
لذلك لا يبدو غريباً انحياز مشيخة العقل في السويداء عموماً إلى السلطة الحاكمة، لا سيما بعد هيمنة السلطة على قرار تعيين مشايخ العقل عبر قنواتها الأمنية، وإن كان ذلك بشكل غير رسمي بعد أن كان يتم عن طريق إجماع وجهاء العائلات، وقد ظهر ذلك الانحياز جلياً بعد انتفاضة 2011، حيث كان الانحياز إلى السلطة سبباً في انشقاق قوات شيخ الكرامة عام 2014، ورفضها علناً مواقف مشيخة العقل الرسمية كسابقة تحدث للمرة الأولى في صفوف رجال الدين الدروز.

ويجدر بالذكر أن مشيخة العقل ذاتها لم تكن على الإيقاع نفسه أو المسافة ذاتها في العلاقة مع السلطة أو مع الموقف من الصراع الدائر في سوريا؛ إذ تباينت مواقف المشايخ نسبياً، وذلك يعود لعدة أسباب أولها ذاتية، مرتبطة بالانقسام الحاصل فيما بينهم، فبعد إطلاق الشيخ حكمت الهجري على نفسه في عام 2014، صفة "شيخ العقل الأول" محاولاً إلغاء دور كل من شيخي العقل الآخرين (جربوع والحناوي)، ليؤكد على تقدّم مكانته وعلو منصبه عن قرينيه اللذين قاما بدورهما كرد فعل على ذلك بإطلاق صفة "دار طائفة المسلمين الموحدين الدروز" على "مقام عين الزمان"، وهو المكان الأبرز دينياً ومقر مزاولة عملهما، الأمر الذي دفع بالشيخ حكمت بإعلان نفسه رئيساً روحياً لطائفة المسلمين الموحدين، محاولاً إلغاء دورهما ومبرراً ذلك بأن الرئيس بشار الأسد قد أوعز بذلك.

وقد بدأ النزاع بالصعود إلى السطح بعد تدخّل السلطة الأمنية والسياسية بتعيين الشيخ حكمت الهجري خلفاً لأخيه الشيخ أحمد الهجري الذي توفي إثر حادث سير في آذار/مارس 2012، والذي اتسمت مواقفه قبيل وفاته بالتراجع عدة خطوات إلى الخلف عن السلطة ليغدو أكثر قرباً من جمهور الانتفاضة السورية. وتعزز الانقسام بمحاولات النظام المستمرة تلميع صورة الشيخ حكمت وإبراز دوره كرئيس روحي لطائفة المسلمين الموحدين الدروز، من خلال التجاوب معه في تلبية تدخلاته لصالح أبناء الطائفة بغية تسويقه كمرجعية أولى وممراً وحيداً للوصول إلى رأس السلطة.

---

[23] الحرم الديني: هو أقسى حكم أو عقاب يمكن إصداره على أبناء المذهب، إذ أنه يشمل الحرم الاجتماعي بما يوجب على المجتمع القطيعة الكاملة للمحروم، ويخضع من لا يلتزم أو من يخرق هذه القطيعة للعقوبة ذاتها، إلى جانب منع المحروم من دخول أماكن العبادة (المجلس) إذا كان رجل دين، وفي حال وفاته لا يُصلّى على جنازته.

أما في المقلب الآخر ورداً على ممارسات النظام في تهميش (جربوع والحناوي) ومحاولاته العديدة التي باءت بالفشل لخلق مرجعيات دينية أخرى موالية له؛ توجه الشيخان إلى المجتمع بشكل أكبر عبر بوابة تقديم المساعدات الإنسانية، والخدمات الطبية للمحتاجين، وإطلاق برنامج التكافل الاجتماعي بإدارة نسائية، والمنح الطلابية، وإنشاء مستوصف خيري ومركز عيادات طبية مجانية، وزادا من الانفتاح على عقد شراكات مع منظمات المجتمع المدني التي لا تدور في فلك النظام، حيث تم منحها غطاءً اجتماعياً وعُقِدت معها شراكات ونُفِّذت معها مشاريع، كان أهمها الشراكة مع منظمة "بيتي أنا بيتك" في مشروع "سبل العيش" الذي قدّم منحاً صغيرة للأسر المتضررة من هجمات داعش.

وقد شكّلت تلك الإجراءات انعطافاً تاريخياً في إدارة الوقف الدرزي غير المنظّم وغير الممأسس ولا يتسم بالإفصاح والشفافية، حيث كان يدار من قبل أفراد بأشكال وطرق بدائية، الأمر الذي طالما أثار سخط أبناء الطائفة واتهاماتهم، فجاءت تلك الإجراءات بعد تولي الشيخ يوسف جربوع مشيخة العقل لتلبي مطالبات مجتمعية تاريخية، وتكون بداية لمأسسة أموال وقف مدينة السويداء عبر إنشاء العديد من اللجان الإدارية بالإضافة إلى مكتب مالي ومكتب إعلامي وإصدار تقرير سنوي متاح للجميع.

ولكن ذلك لا يمنع من القول إن المشيخة الروحية تعيش أزمة بنيوية حادة بين أقطابها الثلاثة، في ظل عدم كفاية أدواتها لجمع الدروز تحت رايتها. ومن المفيد هنا أيضاً التوضيح بأنه لا يوجد دور حقيقي لوزارة الأوقاف في محافظة السويداء، وليس ثمّة مديرية للأوقاف أسوة بباقي المحافظات السورية، بل يوجد مكتب أوقاف يديره شخص واحد فقط، يقوم بدور الشيخ والمفتي والقانوني والمفتش، حسب ما ورد على لسان أحد أئمة الجوامع المفصولين من وظيفته على خلفية مواقفه المجتمعية الساعية للحفاظ على السلم الأهلي بين البدو السنة والدروز.

2.2 السلطة الاجتماعية (الزعامات التقليدية – الوجهاء – الزعامات العائلية)

تزعّمت عائلة الحمدان جبل العرب طوال قرنين كاملين (1685–1869)، منذ الهجرات الأولى إلى أن ظهرت مراكز قوى جديدة بعد هجرات 1840–1860, وظهرت عائلة الأطرش كقوة بديلة حين تمكن إبراهيم الأطرش ابن اسماعيل، مؤسس العائلة من طرد الحمدان خارج الجبل عام 1861. وخلال سنوات الاحتلال العثماني للجبل انتهت مشيخة آل الحمدان الذين كانت لهم اليد الطولى في توطين الفلاحين الموالين لهم والقادمين من مناطق مختلفة في أرض الجبل، كما قادوا المقاومة ضد جيوش إبراهيم باشا المصري، وصدوا العشائر البدوية الساعية وراء الماء والمراعي، وساهموا في تثبيت وجود الدروز واستقرارهم النهائي في المنطقة.

انسحب الحمدان إلى بصر الحرير في درعا، وبعد فترة توسّط مشايخ آل عامر شمالي الجبل وتقرر إقامة مصالحة في شهبا بحضور حاكم الجبل الجديد إبراهيم الأطرش، حيث تم الاتفاق على عودة آل الحمدان إلى الجبل شريطة أن لا يجتمعوا في مكان واحد، بيد أن ذلك التغيير من آل الحمدان إلى آل الأطرش لم يغير من الوضع الاقتصادي والاجتماعي سوى أن أمراء الأطرش أصبحوا هم المكلفون بجباية الضرائب لصالح الدولة العثمانية بعد أن كان ذلك يتم عن طريق

موظفين تعينهم الآستانة من خارج الجبل، الأمر الذي ساهم في تفاقم نقمة الفلاحين على آل الأطرش بسبب ترسيخ الاستبداد الإقطاعي، ومهّد ذلك لما يُعرف بثورة العامية في جبل حوران 1889 ضد آل الأطرش التي استطاع الفلاحون بعدها امتلاك ربع الأرض التي يعملون بها.

أفضى هذا الفرز الجديد إلى بروز مراكز قوى جديدة تتمحور حول الاستقطاب العائلي واتفاقيات البنعمية،[24] وهي حلف يجمع بين عائلات تربطها علاقة قرابة أو نسب، للدفاع المشترك بين العائلات الحليفة، وأسّس ذلك للحالة العشائرية التي لا تزال قائمة حتى اليوم. ومنذ منتصف القرن 19 ظهرت الزعامات الآتية:

أ- إمارة عرى، بزعامة إبراهيم الأطرش ثم شبلي الأطرش. وتضم القسم الجنوبي من الجبل وصلخد والقريّا.

ب- منطقة الرياشنة في الشرق، بزعامة آل نصار في سالة.

ت- منطقة آل هنيدي في الغرب، قاعدتها المجدل.

ث- منطقة آل عامر في الشمال، ومركزها شهبا.

ج- منطقة آل عزام على حدود اللجاة في عريقة.

ح- منطقة الحلبية في اللواء، بزعامة آل عز الدين وقاعدتها لاهثة.

وعلى الرغم من بدايات تبلور مفهوم الدولة في الثلث الأول من القرن العشرين؛ فإنّ السلطة العائلية والزعامة الاجتماعية استمرت في التعبير عن نفسها، وبقيت تحجز دوراً لها في المجتمع بعيداً عن السلطة الدينية المتمثلة بمشايخ عقل الطائفة الذين لا يختلفون عن أية سلطة دينية ترى في انغلاق الناس والتفافهم حول تعاليمها غنيمة لا يجب الاقتراب منها. واستطاعت الزعامة التقليدية أن تلعب دوراً اجتماعياً غاية في الأهمية تمثل في فضّ النزاعات، والوساطة في الخلافات المجتمعية، وإيقاع الحرم الاجتماعي على كلّ من ينقض صلحاً أو لا يستجيب للوساطة القائمة على إحقاق الحقوق ونبذ الثأر بعد إبرام الصلح (عقدة الراية)،[25] والحرم الاجتماعي هو بمثابة قطيعة اجتماعية تفرض على أبناء المجتمع قطع كل أشكال العلاقات الاجتماعية مع المستهدف بالعقاب، فلا تُلقى عليه التحية ولا يؤكل طعامه ولا تُحضر أفراحه أو أتراحه ولا تتم مصاهرته.

وقد استمرت السلطة العائلية بلعب هذا الدور الفاعل والإيجابي حتى مع تبلور الدولة السورية ووجود مؤسساتها القضائية والتنفيذية، إلى أن بدأ حكم البعث بالتغلغل وسط المجتمع للسيطرة عليه عبر خلق مراكز قوى مجتمعية أخرى موازية ومنافسة مدعومة من السلطة وتدين بالولاء لها، بهدف تبديد المرجعية ضمن العائلة نفسها. وعمل حكم البعث على تفكيك المرتكزات من خلال شراء الولاءات بالامتيازات حيناً وبالترهيب حيناً آخر، الأمر الذي ضمن هيمنته عليها وطاعتها له، بعد ما كان قد كلّس المبدأ العشائري وقضى على التيار الأخلاقي فيه.

---

[24] المصطلح مشتق من "أبناء العم".

[25] عقد الراية: واحدة من الأعراف الاجتماعية، وتعني إجراء المصالحة في حالات القتل بين عائلة القاتل وعائلة القتيل، بهدف عدم الانجرار خلف الانتقام وحقن الدم، وتتلخص برفع راية بيضاء دلالة على الجنوح إلى السلم، وعرضها على عائلة القتيل ليقوموا بعمل عقدة فيها كناية عن قبولهم بالصلح والتعهد بعدم الثأر. ويتم ذلك بحضور عدد كبير من الناس ووجهاء العائلات الكبرى، وعادة ما يتم تكليف شخصية اجتماعية أو دينية مرموقة لتكون بمثابة الضامن لهذا الاتفاق.

ولعل هذا ما يفسر وقوف معظم تلك الزعامات مع النظام مع انطلاق انتفاضة عام 2011، باستثناء القلة القليلة ممن جاهروا برفضهم لسلوك النظام علناً، وكان أبرزهم الشيخ أبو معين جمال هنيدي، من عائلة هنيدي زعماء المنطقة الغربية المحاذية لمحافظة درعا، والذي استقبل أعداداً كبيرة من النازحين من محافظة درعا في بيته، وترأّس فيما بعد "الهيئة الاجتماعية للعمل الوطني" التي شكّلت صمام أمان للجبل، مستفيداً من علاقاته الجيدة مع زعماء سهل حوران (محافظة درعا)، إذ تم استثمار تلك العلاقة لوأد الفتن التي كان يتم افتعالها بين السهل والجبل، إلا أن مواقفه تلك كانت سبباً بتعرضه لعدة محاولات اغتيال. وشاركه في هذا الموقف أيضاً زعيم منطقة الحلبية جمال عز الدين الذي لم يشفع له موقفه ذلك حين تم اختطافه من قبل جبهة النصرة في محافظة درعا مع 16 شاباً منتصف عام 2012 ولا يزال مصيرهم مجهولاً حتى الآن.

2.3 المؤسسات الحكومية (الخدمية)

عانت معظم المؤسسات الخدمية الحكومية في سوريا بسبب طبيعة نظام الحكم من نسب عالية من الفساد، الأمر الذي كان ينعكس على جودة تلك الخدمات أو ضعفها قبل عام 2011، أما بعد 2011 فقد تراجع مستوى الخدمات بشكل كبير وارتفعت وتيرة الفساد على نحو غير مسبوق، في مختلف القطاعات الخدمية وعلى رأسها الصحة والتعليم والقضاء.

2.3.1 قطاع الصحة

إن القطاع الصحي كباقي القطاعات الخدمية، يعاني من تقليص الميزانيات المخصصة له بسبب تكلفة الحرب، مما ينعكس على مستوى الخدمات المقدّمة للمواطنين في القطاع الحكومي متمثلاً بنقص في الأدوية بما فيها الأدوية الإسعافية، وخروج عدد كبير من الأجهزة الطبية عن العمل بسبب عدم القدرة على صيانتها، فضلاً عن الفساد الإداري والمالي المستشري في جميع قطاعات الدولة.

2.3.1.1 القطاع الحكومي قبل 2011

بحسب تصريح مدير صحة السويداء لموقع swaida city في 2010/4/12 فإنه كان لدى مديرية صحة السويداء العديد من الدوائر التي تقدّم الخدمات الصحية للمواطنين مثل:

- دائرة الرعاية الصحية الأولية: التي تقدّم الخدمات للمستوصفات والنقاط الطبية، والبالغ عددها حوالي 90 مركزاً ونقطة طبية، تقدم اللقاحات، وتُعنى بالصحة الإنجابية، كما تقدّم أدوية السكري عبر البرنامج الوطني للسكري، ويبلغ عدد هؤلاء المرضى على مساحة المحافظة حوالي سبعة آلاف مريض. وتقدّم هذه المراكز أدوية للأمراض المزمنة كالليشمانيا، والحمى المالطية وغير ذلك، وتسهم بدور تثقيفي صحي.
- دائرة التأهيل والتدريب الطبي والفني: تهتم بإقامة دورات تدريبية علمية داخل المديرية، للأطباء والممرضين وكافة العاملين في القطاع الصحي، كما تقيم دورات خارج المحافظة.

2.3.1.2 القطاع الحكومي بعد 2011

تكشف مقارنة الأرقام الواردة من المرصد الحضري[26] في محافظة السويداء بين عام 2011 وعام 2018، والموضحة في الجداول المرفقة[27] ما يأتي:

1. لم يتم إنشاء أي مركز صحي أو نقطة طبية في المحافظة خلال الفترة بين عام 2011 وعام 2018.
2. ظهر نقص في عدد الكادر التمريضي، ونقص في عدد الأطباء، بالترافق مع زيادة في عدد السكان جراء موجات النزوح أو العودة لأبناء المحافظة من مناطق الصراع.

المراكز الصحية في محافظة السويداء				
العام	درجة المركز	المراكز الصحية	الكادر التمريضي	الأطباء
2018	أ	67	519	41
	ب	15	243	46
	ج	10	308	45
2011	أ	67	539	46
	ب	15	276	53
	ج	10	394	79

3. لم يتم إنشاء أي مستشفى في المحافظة أو وضع حجر أساس، باستثناء مستشفى "سالة" الذي كان قيد التسليم قبل عام 2011، ولعل التأخير الحاصل في تسليم مستشفى "شهبا" الذي بدأت أعمال إنشائه عام 2003 (منذ 16 عاماً) المثال الأبرز على تردي الواقع الصحي في المحافظة، وانتشار الفساد. إذ أورد موقع "سناك سوريا" بتاريخ 2019/3/20 نقلاً عن صحيفة تشرين ما يأتي: "بيّن محضر الاستلام المؤقت لمشفى شهبا في محافظة السويداء والذي استغرق العمل فيه 16 عاماً وجود سوء تنفيذ في البناء وعدم مطابقته للمخططات الموجودة بالعقود الأصلية".[28]
4. ثمّة نقص حادّ في الأطباء الاختصاصيين، وخاصة أطباء الجراحة، بالإضافة إلى نقص في المساعدين الفنيين. أما الزيادات في بعض المؤشرات الأخرى فهي طفيفة ولا تواكب التغيرات وطول الفترة الزمنية، ويعود ذلك إلى عدة عوامل أهمها الأجور المتدنية، والهجرة بهدف العمل بشروط أفضل أو بهدف اللجوء، والفصل من العمل بسبب عدم الالتحاق بالخدمة الإلزامية أو الاحتياطية أو لأسباب سياسية.

---

[26] https://www.facebook.com/swaida.mouhafaza/posts/2604478766290771/

[27] مصدر المعلومات الواردة في الجداول المرفقة هو أحد موظفي مكتب دعم القرار في محافظة السويداء، وقد رفض التصريح باسمه.

[28] https://bit.ly/357kspe

المستشفيات في محافظة السويداء											
العام	المستشفيات	نوع المستشفى	عدد الأسرة الفعلي	الأطباء العاملين	الأطباء الجراحين	الأطباء المقيمين	الكادر التمريضي	عناصر التمريض	المساعدين الفنيين	الكوادر المتفرقة	غرف العمليات	سيارات الإسعاف
2011	2	عام	431	212	78	83	875	63	398	95	17	22
2018	3	عام	534	266	46	108	995	89	380	217	21	30

2.3.1.3 القطاع الصحي الخاص

يوجد في المحافظة ثلاثة مستشفيات متواضعة من حيث الطاقة الاستيعابية وعدد الأقسام، تعود ملكيتها للقطاع الخاص وهي العناية والسلام والمزرعة، وتتسم بارتفاع تكاليف العلاج فيها في ظل تردي مستوى الدخول والازدياد الكبير في معدلات الفقر بين أبناء المحافظة

2.3.2 قطاع التعليم

يتّسم واقع التعليم في محافظة السويداء بالسمات الآتية:

- نقص حادّ في الكوادر التعليمية، بسبب:
  1. الهجرة.
  2. الفصل لأسباب متعلّقة بالتخلف عن الخدمة الإلزامية أو الاحتياطية أو لأسباب سياسية.[29]
  3. الأجور المتدنية، إذ تصل أجور الحصة الدرسية للمدرس الاختصاصي إلى 300 ليرة سورية، ما يعادل نصف دولار أمريكي، ولغير الاختصاصي 180 ليرة سورية.[30]
  4. الفساد الإداري (الواسطة) الذي يؤدي إلى توظيف مدرسين ومدرسات غير أكفاء.
  5. عدم توفر الأمان على الطرقات المؤدية إلى بعض القرى النائية، بالإضافة إلى تكاليف النقل الباهظة.
- بناء مدارس:
  1. بعد عام 2011 لم يتم إنشاء أية مدرسة، حتى أن أعمال الترميم شبه متوقفة.

[29] أصدر رئيس مجلس الوزراء قراراً بفصل 185 مدرساً، 71 منهم من السويداء، نتيجة عدم التحاقهم بالخدمة الاحتياطية في قوات النظام. https://bit.ly/2Lpaml7

[30] تستند هذه الأرقام إلى مقابلة مع موجه مادة الرياضيات في مديرية التربية بالسويداء.

2. ازدياد عدد الطلاب في الشعبة الصفية، إذ يصل عدد الطلاب إلى 45 طالباً في الشعبة، وقد ساهمت في هذه الزيادة حالات النزوح من خارج المحافظة. ولا يتسق هذا العدد مع المناهج التعليمية الجديدة القائمة على استراتيجيات التعلم النشط، أي عمل الطلاب ضمن مجموعات.

- الخدمات:

تم تقليص ميزانية وزارة التربية إلى النصف، مما انعكس على مستوى الخدمات في المدارس وأهمها:

1. التدفئة: أدى النقص الحاد في مادة المازوت إلى اضطرار طلاب المدارس للاستعانة بالبطانيات ليقوا أنفسهم البرد، وقد ذكرت شبكة شباب السويداء S.N.N بتاريخ 25 كانون ثاني/يناير 2019 أن طلاب مدرسة عصام حرب اضطروا إلى الاستعانة "بالبطانيات"، علماً أنها تعتبر من أهم مدارس مدينة السويداء.[31]
2. انقطاع الكهرباء: الأمر الذي يؤدي إلى عدم القدرة على استخدام الوسائل التعليمية وبشكل خاص في مدارس الفنون النسوية، إذ تم إلغاء الدروس العملية بسبب عدم وجود مولدات لتشغيل ماكينات الخياطة.
3. غلاء الكتب الدراسية لمرحلة التعليم الثانوي، والنقص في أوراق الامتحان، الأمر الذي دفع عدداً من المنظمات المحلية لإطلاق حملات لتلافي هذا النقص، مثل الحملة التي أطلقتها "بيتي أنا بيتك" تحت اسم "نسخة كتبك من عندي".[32]
4. الفساد في توزيع مساعدات المنظمات الدولية الخاصة بالمدارس، إذ لا يصل للطلاب إلا الجزء القليل.

- الأمان:

1. انتشار المخدرات في المدارس.
2. انتشار العنف وحيازة الطلاب على السلاح الأبيض (السكاكين)، وازدياد حالات التحرش الجنسي بالفتيات من خلال تجمّع بعض الشباب على مداخل المدارس وعدم وجود حماية لهن، باستثناء بعض المبادرات المجتمعية.

ومن نتائج هذا الوضع:

1. التسرب المدرسي في ازدياد مستمر في المرحلتين الإعدادية والثانوية في ظل عدم نفاذ قوانين إلزامية التعليم نتيجة الفوضى، وانعدام الحافز من التعليم بسبب ندرة فرص العمل للخريجين، وانسداد أفق الجدوى من التعليم.
2. دعوة بعض الأهالي إلى عدم الاختلاط بين الذكور والإناث في المدارس، حرصاً على أمان بناتهم وخشية انجرارهن إلى سلوكيات "ناشزة" كتعاطي المخدرات وغير ذلك، وقد يصل الأمر في بعض الحالات إلى حدّ حرمانهن من إكمال تعليمهن.

---

[31] https://www.swaidasnn.com/2019/01/45534-24.html

[32] https://bit.ly/2Pbw03G

2.3.3 القضاء

لعل المثال الأكثر وضوحاً على الانهيار في قطاعات الدولة هو ما تعرّضت له المؤسسة القضائية ربما أكثر من غيرها، إذ كانت مستهدفة أصلاً من أجهزة القمع التابعة للسلطة قبل عام 2011، وتفاقم ذلك بعدها ليظهر بدرجات متفاوتة، حيث تم ربط تنفيذ الأحكام القضائية بالموافقات الأمنية في القضاء المدني، أما في القضاء الجزائي فإن الأحكام القضائية لا تنفذ بسبب عجز الشرطة عن القبض على المطلوبين للعدالة، كما أن حماية الأجهزة الأمنية للمحكومين من المتعاملين معها جعلت الأحكام القضائية بحقهم غير ذات جدوى مما أفقد القضاء هيبته. وبالتالي فقد طالت الأحكام القضائية الناس البسطاء العاديين، أما المجرمين الكبار وفصائلهم فكانوا فوق القانون وبمنأى عن تطبيق الأحكام.

وقد ساهمت تلك العوامل بتراجع الثقة بنزاهة القضاء السوري، ويضاف إليها كثرة أعداد المطلوبين لأجهزة النظام الأمنية أو للخدمة العسكرية ممَّن لا يستطيعون دخول المحكمة الرسمية خوفاً من الاعتقال. الأمر الذي دفع نحو عودة ظهور القضاء العشائري، على الرغم من تراجع الحالة العشائرية عموماً. وعلى عكس المحكمة المذهبية المنصوص على قوانينها وهيئاتها بالاستناد إلى التشريع الدرزي، والتابعة لمؤسسة القضاء الرسمية؛ فإن القضاء العشائري لا جسم ثابت له، ولا مرجعية قانونية، ولا نصوص واضحة، بل يعتمد على الأعراف والتقاليد.

ومن الأمثلة البارزة على عودة القضاء العشائري:

- لجنة حل النزاعات العائدة إلى دار الطائفة التي أُنشِئَت بقرارٍ من شيخ العقل جربوع في مطلع عام 2018، والتي عملت على حل الخلافات الشخصية والعائلية من مشاجرات وسرقات، عن طريق جمع الخصوم ضمن ما يُسمّى "قعدة حق"، حيث تقوم باستيفاء الحقوق سواء كانت مادية أو معنوية بالتراضي.
- لجان مؤقتة يتم تشكيلها بالتوافق بين طرفي النزاع، وتضم وجهاء ومشايخ وقادة فصائل محلية كجهة تنفيذية، حيث تنحل تلك اللجان بعد انقضاء مهمتها.
- لجنة عشائرية مفوضة بإصدار أحكام وخاصة الإعدام، انبثقت عن ما يُسمّى وثيقة "طرش الدم"،[33] والتي صدرت في أيار/مايو 2017 ووقع عليها عدد من وجهاء العائلات وزعمائها، لكنها لم تجد طريقها للتنفيذ. إذ عدا عن عدم توافق جميع العائلات عليها؛ فإن تراجع الدور العشائري في حياة الدروز أفقد المبادرة محتواها، بل على العكس، فإن حالات متعددة من الانتقام الدموي العنيف، ظهرت خارج إطار وثيقة "طرش الدم"، ولم تلقَ ردّ فعل حتى من أجهزة القضاء الرسمي. حيث أقدم أحد قادة المجموعات الأمنية في مدينة السويداء على قتل 3 أشخاص، ورمى جثثهم في دوار المشنقة،[34] بعدما اتهمهم بخطف ابنته. كما تم إعدام المُتهَمين بقتل القيادي في قوات شيخ الكرامة وسام العيد، ميدانياً من دون اللجوء إلى القضاء العشائري، وأُلقيت جثثهم في الشارع.

---

[33] طرش الدم: وثيقة عشائرية لمحاسبة المتورطين بعمليات الخطف والقتل والاعتداء على الأعراض والممتلكات في السويداء، ولمنع حالات الثأر من قبل ذوي المحكومين بالإعدام، يجب أن توقع عليها كل عائلات الجبل.

[34] https://bit.ly/385lILn

2.4 القوى العسكرية

مع بداية الانتفاضة السورية في عام 2011، ظهر عدد من القوى والفصائل والهيئات الأمنية والعسكرية في محافظة السويداء، إضافة إلى القوى العسكرية والأمنية الرسمية التي كانت متواجدة قبل عام 2011. وسيحاول هذا القسم إلقاء الضوء على هذه القوى الناشئة فقط، ويحلل تأثيرها على ديناميات الصراع في المنطقة.

2.4.1 الميليشيات الموالية للنظام

مع وصول الحراك السلمي إلى محافظة السويداء، وخاصة بعد مظاهرتي ساحة سلطان في 2011/4/14 وساحة الشعلة في 2011/4/17 المصادف لذكرى الجلاء واللتين قمعتهما عناصر محسوبة على النظام (شبيحة)؛ بدأت تظهر أهمية تشكيل مجموعات منظّمة سريعة التجاوب لقمع الاحتجاجات في كل المناطق، وخاصة في مدينة السويداء وشهبا والقريا. وقد عملت الأجهزة الأمنية على ذلك من خلال الترويج لرواية النظام التي تمر عبر بوابة حماية الأقليات من الخطر الإسلامي التكفيري والورقة الطائفية والحرب على الإرهاب، مستثمرة جهل الشباب وفقرهم وتهميشهم ورغبة بعضهم بممارسة السلطة والتسلّط (التماهي بالمتسلط) نتيجة شعورهم بالدونية. فقامت الأجهزة بتوزيع البطاقات الأمنية التي كانت بمثابة الضوء الأخضر للعبور فوق القوانين، بدءاً من تجاوز طوابير الخبز وطوابير محطات الوقود إلى التعدي على الأملاك العامة وإشغال الأرصفة بالبسطات التجارية، لتكون تلك الفئة من الشباب أدوات للأجهزة في قمع الاحتجاجات ووقوداً لجبهات القتال من خلال تشكيل الفصائل والميليشيات العسكرية الرديفة لجيش النظام، بدءاً باللجان الشعبية ووصولاً إلى العديد من الميليشيات الجديدة وهي:

اسم الميليشيا	تابعيتها	ملاحظات
الدفاع الوطني	النظام، وعلاقتها جيدة مع حزب الله اللبناني	أكبر مجموعة مسلحة في السويداء، تغلب عليها الفوضوية والتسرب من صفوفها
الحزب السوري القومي الاجتماعي	النظام، وعلاقتها جيدة مع حزب الله اللبناني	شديدة الانضباط والتنظيم، وتتمتع بهرمية قيادية حزبية
كتائب البعث	النظام	فوضوية وتعاني من الترهل وسوء القيادة
جمعية البستان	النظام، وعلاقتها جيدة مع حزب الله اللبناني والحزب السوري القومي الاجتماعي	يمولها رجل الأعمال رامي مخلوف. تمّ حلها مؤخراً بعد تسريبات عن خلاف بين الرئيس وآل مخلوف
حماة الديار	النظام	جماعة أهلية مسلّحة، في مدينة السويداء وفي معظم قرى المحافظة. أسسها نزيه جربوع ابن شيخ العقل السابق حسين جربوع
حزب التوحيد	النائب اللبناني السابق وئام وهاب، المقرّب من النظام السوري	لم تحظ بقبول مجتمعي، ولا تظهر إلا عند وجود توتر ما

وبالإضافةً إلى هذه الميليشيات والمجموعات توجد مجموعات مسلّحة عائلية ترتبط قياداتها بالأجهزة الأمنية في المحافظة، ومجموعات أمنية متعاقدة مع فروع الأجهزة الأمنية، وخلايا محلية تابعة لحزب الله. ومؤخراً بدأت بالظهور مجموعات أمنية مرتبطة بالقوات الروسية، وحاولت الاعتماد على ميليشيات وفصائل موجودة بهدف استقطاب عناصرها إلى تشكيلها العسكري الأبرز (الفيلق الخامس) من بوابة تسوية أوضاع المطلوبين، سواء للخدمة العسكرية أو في دعاوى قضائية. على عكس إيران التي كانت قد أسّست وموّلت بشكل مباشر من خلال حزب الله مجموعات أمنية وميليشيات، مستثمرة علاقة حزب الله الجيدة مع الأمن العسكري الذي يسيطر على طريق تهريب المخدرات عبر حدود السويداء مع الأردن (أحد أهم مصادر التمويل)، ويدعم ميليشيا الدفاع الوطني لوجستياً ومادياً، ويعمل على استثمار الصراع الراهن بين الخلايا الأمنية للنظام ومجموعات الشريان الواحد،[35] لإزاحة العقبة التي يمثلها الشريان على خط تهريب المخدرات باتجاه الأردن[36].

2.4.2 فصائل الحماية الأهلية والفصائل التابعة لرجال الدين

في النصف الثاني من عام 2012، تم تشكيل حركة رجال الكرامة بقيادة الشيخ "وحيد البلعوس" رداً على انحياز السلطة الدينية الواضح للنظام من جهة، ومن جهة أخرى رداً على حالات الفلتان الأمني والتجاوزات والفساد التي خلّفتها الميليشيات التابعة للنظام، والتي بدأت تهدد بتفكيك المجتمع وانهيار قيمه الأخلاقية. وقد حملت الحركة جملة من العناوين أهمها حماية الأرض والعرض وحماية ضيوف المحافظة "كرامتهم من كرامتنا" و "الدم السوري على السوري حرام"، ووقفت ضد تجنيد شباب الدروز في جيش النظام، بالإضافة إلى تعهدها بحماية التظاهرات والاحتجاجات السلمية، وتجسد ذلك في حماية ما عُرِف بحملة "حطمتونا"، التي انطلقت في بدايات عام 2016، وتمثّلت بمظاهرات واعتصامات طلابية احتجاجاً على فصل مدرسين وموظفين من أعمالهم بسبب رفضهم الالتحاق بالخدمة العسكرية ومناهضة البعض الآخر لنظام الحكم في سوريا.

لم تأخذ قوات شيخ الكرامة بداية موقف المعارض الصريح للنظام؛ إلا أنّ إمعان قوات النظام بالقمع والقتل والاعتقال التعسفي أدى بعد بضعة أشهر إلى أن تجد نفسها في مواجهة النظام، الأمر الذي تسبب بقتل الشيخ البلعوس مؤسس الحركة في أيلول/سبتمبر 2015، ومعه أكثر من 50 شخصاً من رجال الحركة إثر تفجير موكبه، وقد أشارت أصابع الاتهام حينها إلى النظام السوري. وفور مقتل قائدها البلعوس أعلنت الحركة تشكيل ما عُرف بـ "قوات شيخ الكرامة" للأخذ بثأر المؤسس وحماية السويداء ومواصلة النهج نفسه من رفض الانحياز والتجنيد الإجباري لأبناء المحافظة.

---

[35] تجمّع ضمّ عدداً من الفصائل، سنأتي على ذكره لاحقاً.

[36] أقدمت قوات شيخ الكرامة، أبرز مجموعات الشريان، على إعدام أحمد علي جعفر "أبو ياسين"، أحد أقوى رجال حزب الله في السويداء، بعد اتهامه بإدارة أكبر شبكة للمخدرات في السويداء. وأبو ياسين شيعي من بصرى، نزح منها إلى السويداء عام 2013 ليستقرّ في بلدة القريّا.

خاضت الحركة منذ الإعلان رسمياً عن تشكيلها عام 2014، معارك ضد جبهة النصرة في الريف الغربي للسويداء "معركتي داما ودير داما"،[37] ومعارك ضد داعش في الريف الشرقي في قرية "الحقف"،[38] وتبقى المعركة الأبرز لهم في صد هجمات داعش على الريف الشرقي في 2018/7/25 مع عدد من الفصائل، ومنها قوات فرسان الكرامة وقوات عتيل الكرامة وقوات الفهد الذين اتحدوا فيما بعد وأعلنوا عن تشكيل قوات "الشريان الواحد"، التي توعّدت النظام من ضريح سلطان باشا الأطرش في بلدة القريا، بالتصدي له إذا ما حاول الزجّ بأبناء المحافظة في أتون حربه على الشعب السوري. ورفعوا شعار "لا اعتقالات تعسفية ولا سياسية في الجبل بعد اليوم"، بحسب ما جاء في بيانات تشكيل الفصائل الجديدة.

ومن الجدير بالذكر أن الفصائل المحلية التي تعتمد في تشكيلاتها على ما يعرف بـ "نظام البيارق"،[39] وأبرزها "الفهد" و"شيخ الكرامة"؛ أكّدت أنها لا تحمل أي مشروع سياسي، بدليل أنها لم تشارك بأية أعمال عسكرية خارج حدود المحافظة، وأكّدت أنها لا تنحاز إلى الموالاة أو المعارضة، بل لكرامة أهالي السويداء ورفع الظلم عنهم.
وتعتمد هذه الفصائل المحلية على "التمويل الذاتي" والتبرعات في شراء السلاح والعتاد، وفق رواية قياداتها. وتزعم أنها رفضت عروض تمويل عديدة طرحتها جهات "هدفها حرف مسار الفصائل عن الحماية الذاتية"، وزجّها في "تيارات سياسية ومشاريع تقسيم". كما تشدد على أنها ليست بديلاً عن "الدولة" في الأمور الاقتصادية والخدمية وتأمين مستلزمات المعيشة للسكان. وأنها لا تثق بأي طرف سياسي، وتحترم تطلّعات الشعب السوري بكافة أطيافه، مؤكدة أن السويداء جزء لا يتجزأ من سوريا".[40]
ورغم ذلك فإنّ شعبية فصائل الشريان محدودة، حتى في مناطق انتشارها، ويرجع ذلك لتواجد عناصر منها من أصحاب السوابق المتهمين بجرائم خطف وقتل وتهريب، وارتكاب البعض منهم جرائم بشكل علني. كما تغلب العشوائية على تصرفات هذه الفصائل، حتى أنها منقسمة على نفسها في قراراتها الداخلية، ولا تحمل أية رؤية شاملة وواضحة لمستقبل المحافظة.

أما فصيل "حركة رجال الكرامة" بزعامة الشيخ يحيى الحجار، أكبر الفصائل المحلية على ساحة المحافظة، فقد بات يسير بخطوات ثابتة نحو تطبيع العلاقات مع النظام، عبر وساطة الروس بعدما كان أبرز خصومه في السويداء منذ عام 2015. في حين أصدرت قوات شيخ الكرامة في منتصف عام 2018 بياناً اتهم روسيا بأنها قوة احتلال، وذلك بعدما اعتبر وفد روسي خلال لقائه وجهاء وشيوخ عقل أن المناطق التي تسيطر عليها قوات شيخ الكرامة خاضعة لسيطرة "تنظيم إرهابي". وجاء ذلك بعد أن رفضت قوات شيخ الكرامة تمركز ميليشيا قوات النمر الموالية لروسيا في بلدة المزرعة إبّان حملة النظام العسكرية على محافظة درعا، إلى جانب رفضها الاشتراك في تلك الحملة.

---

[37] http://www.yasour.org/2012/list.php?go=fullnews&newsid=48190

[38] https://www.aman-dostor.org/12625

[39] نظام البيارق :هو تقليد حربي يقوم على أن تكون لكل قرية أو عائلة كبيرة رايتها الخاصة (بيرق)، تقاتل تحته، ويُعيّن حامل لكل بيرق، وقد اتّبع الأهالي في السويداء هذا التقليد سابقاً خلال حروبهم مع العثمانيين والفرنسيين. وفكرة البيرق قائمة على إعلام العدو والإجهار بالهجوم كجزء من قيم الفروسية التي لا تعتبره نصراً، ذلك الذي يأتي بطريقة الغدر.

[40] https://bit.ly/2rZIbZA

اسم المجموعة	التابعية	ملاحظات
حركة رجال الكرامة	فصيل أهلي مسلح، يعتقد بالحياد الإيجابي، أي لا يصنف نفسه مع المعارضة ولا مع النظام	أكثر الفصائل الأهلية تنظيماً وتسليحاً، يضم 26 مجموعة أو "بيرقاً"
الشريان الواحد	بعض مجموعاتها تجاهر بعداء النظام	تحالف فضفاض لمجموعات أهلية مسلحة، منشقة بغالبها عن حركة رجال الكرامة، تعاني من سوء التنسيق والفوضوية
قوات الفهد	مقربة من الجانب الروسي	مجموعة أهلية مسلحة صغيرة في بلدة قنوات، كانت مرتبطة بالشريان الواحد
قوات شيخ الكرامة	ضد النظام	أبرز مكونات الشريان الواحد

2.5 الأحزاب السياسية

قامت سياسة النظام على تفريغ الحياة السياسية ومصادرتها من المجتمع لصالح الفكر الشمولي والحزب القائد، وذلك منذ انقلاب آذار/مارس 1963، وصولاً إلى دستور 1973 والقاضي بمادته الثامنة بأن حزب البعث هو الحزب القائد للدولة والمجتمع ويقود الجبهة الوطنية التقدمية، وكانت تلك المادة المسمار الأخير في نعش الحياة السياسية والتعددية في سوريا، حيث بدأ النظام الأمني بملاحقة النشطاء السياسيين وزجهم في السجون أو دفعهم إلى الفرار وصولاً إلى تصفية الخصوم. ما أدى إلى انحسار العمل السياسي بتحوله إلى العمل السري، وبقيت الأحزاب المنضوية في إطار الجبهة الوطنية التقدمية بمثابة ديكور من دون أية فعالية. وبكلتا الحالتين فإن العمل السياسي كان بلا أثر حقيقي في الحياة العامة، باستثناء بعض اللمحات الطفيفة التي ظهرت في بداية الألفية الجديدة تحت اسم "إعلان دمشق"، والذي تلاه "إعلان دمشق بيروت"، حيث قام النظام بملاحقة الموقعين وفصل الموظفين والمدرسين منهم من وظائفهم، وكان للسويداء حصتها من هذه الإجراءات التعسّفية.

واستمرت هذه الحال حتى انطلاق حركة الاحتجاجات الشعبية في آذار/مارس 2011، حيث كان هذا الحراك بمثابة الصدمة التي أعادت النبض للأحزاب المتهالكة التي حاولت الانخراط في صفوف الحراك، والعمل على إعادة هيكلتها وانضوائها في تحالفات كان أهمها "تجمع القوى الوطنية في السويداء"، والذي ضمّ قرابة 22 حزباً وحركة سياسية بالإضافة إلى ممثلين عن تنسيقيات الثورة؛ إلا أنه ولأسباب عديدة لم يكن لهم دور نوعي في الحراك بسبب ضعف أثرهم الاجتماعي بحكم عزلتهم عن المجتمع لأسباب ذاتية وموضوعية.

3 المجتمع المدني ومحدّدات تشكّله

كان النشـاط الأهلي والمدني في محافظة السـويداء قبل 2011 حاضـراً بأشـكال متعددة، لكنه بقي قاصـراً عن الإحاطة بالمفهوم الحديث لمؤسسات المجتمع المدني، ومن هذه المؤسسات والمنظمات التي لها تاريخ طويل في السويداء الجمعيات الخيرية التي لعبت دوراً في عملية التكافل الاجتماعي، لكنها في الوقت ذاته كانت تفتقر إلى أية برامج في التمكين والتنمية. وقد تشكّلت الجمعيات بأعداد كبيرة (تشير بعض التقديرات إلى وجود 94 جمعية في عام 2016)[41] في محافظة السويداء، مما يدل على ضـعف برامج التأمين الاجتماعي والصـحي، ويُعدّ مؤشـراً على فشـل الدولة في عملية التنمية. ولعل السـبب الأبرز في عدم ارتقاء هذه الجمعيات إلى مصاف منظمات المجتمع المدني هو سياسة حزب البعث القائد للدولة والمجتمع، والمهيمن على الحياة العامة، والذي ألغى أية فرصـــة لتشـــكل فضـــاء مدني، حيث حوّل الجمعيات الأهلية والمنظمات والأحزاب والنقابات إلى أذرع وأدوات للحزب القائد. كطلائع البعث واتحاد الشبيبة والاتحاد النسائي واتحاد العمال، وحصر العمل على قضايا المرأة والشباب والعمال بهذه المنظمات.

إلا أن الفضـاء المدني في محافظة السويداء عام 2011 وبعد انطلاق الانتفاضـة السورية بدأ يحجز مساحته في أكثر من ميدان منها الإعلام عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وإطلاق المبادرات المجتمعية، وتشكيل منظمات العمل المدني وفرقه، وإعادة نشاط المنظمات الحقوقية. وتمّ ذلك بفضل عدة عوامل أهمها انشغال النظام في الحرب وتداعياتها، إلى جانب اعتماد النظام سياسـة اللين في التعاطي مع محافظة السـويداء لاسـتمالة أهلها كحليف من ناحية، والخوف من فتح جبهة مع أقلية دينية تبدد روايته كحامٍ للأقليات.

وعلى الرغم من أهمية العوامل السـابقة في حجز مسـاحة للمجتمع المدني في الحياة العامة؛ فإنّ ثمّة عوامل سـيكولوجية ذاتية مرتبطة بكسر جدار الخوف لدى معظم أبناء محافظة السويداء، ساهمت في اتساع هذه المساحة. فضلاً عن العوامل الموضـــوعية والمرتبطة بدور بعض الزعامات الاجتماعية والدينية في دعم بعض المبادرات المجتمعية أو احتضـــانها أو تبنيها، ويضـاف إلى تلك العوامل خذلان السلطة لسكان السويداء في أكثر من مناسبة، وعدم القدرة على حمايتهم. إذ أنهم باتوا يدركون أن النظام قادر فقط على الإضـــرار بهم وأذيتهم، لا على حمايتهم. وقد تعززت هذه القناعة بعد خذلان النظام لهم أثناء هجمات داعش على الريف الشـرقي للسـويداء في تموز/يوليو 2018، وانقلاب المزاج الشـعبي المحايد إلى حال استياء وغضب من النظام وتحميله مسؤولية المجزرة.

3.1 الخلفية الدينية

إن مذهب التوحيد الدرزي ليس من المذاهب الدعوية، أي أن الطائفة الدرزية ليس لديها مشـــروع ديني تبشـــيري، فالمذهب غير قابل للنشر والمشروع الديني للطائفة ينتهي عند حدودها الإدارية. ومن نافل القول أيضاً إن ثمّة فصل فعلي للسلطات،

[41] https://zh-cn.facebook.com/swaida.mouhafaza/posts/1097123530359643:0

إذ لا يجب أن يتدخل رجال دين الطائفة في الحياة السياسية، ولا يجوز لهم ممارسة أي عمل سياسي لأنه يتناقض مع طبيعة الالتزام الديني. والدين في مذهب التوحيد هو شأن شخصي وممارسة شعائره أمر اختياري لا يُفرض على أحد من أبناء الطائفة. ويُحظَر على غير المتدينين الاطلاع على النصوص الدينية (كتب الحكمة)، بل إن هذا الحظر يطال أيضاً جزءاً من المتدينين الذين ارتكبوا بعض المعاصي واعترفوا بها قبل التزامهم بالدين، الأمر الذي يضعهم في مرتبة دينية أدنى.

وقد ساهمت العوامل السابقة إلى حد كبير في عدم سيطرة الدين، وضيق هامش تدخله في حياة أبناء الطائفة، ما جعلهم أكثر تقبلاً وانفتاحاً على الآخر المختلف عنهم دينياً أو مذهبياً. كما ساهم ذلك في اتساع هوامش الحريات المتعلّقة بالمرأة وحقوقها بالقياس مع نظيراتها في المجتمع السوري، وأفسح المجال أيضاً لدور أكبر لها في المجتمع وفي العمل المجتمعي والمشاركة في الشأن العامّ. فعلى سبيل المثال لا الحصر إن برنامج التكافل الاجتماعي[42] والمركز الطبي العائدين إلى مقر عين الزمان يداران بالكامل من قبل فريق نسائي.
ومن نافل القول إن ضيق هامش تدخّل المؤسسة الدينية في حياة أبناء الطائفة ساهم في إفساح مجال رحب لنمو منظمات المجتمع المدني، خصوصاً تلك المعنية بتمكين المرأة والتي بدأت بالتشكّل والتعبير عن نفسها بعد عام 2011.

3.2 بين العشائرية والانتماء الطائفي والانتماء الوطني (القومي)

نظراً لتعدد التحديدات (الدينية، المذهبية، العشائرية) لتركيبة المنطقة السكانية؛ وجد الدروز تاريخياً أن مصلحتهم تقتضي تقديم المُحدِّد العشائري على الديني أو المذهبي لأنه الأقل تعرّضاً للإقصاء، والأكثر جَسْراً للهوّة مع محيطهم. وكانوا يؤكّدون بكل أدبيّاتهم على أنهم عرب أقحاح يعود نسب أغلبهم إلى التنوخيين، وأنهم مجتمع عشائري أثّر وتأثّر بجواره خلال قرون خلت، لتأتي فكرة الدولة الحامية في الثلث الأول من القرن العشرين ويجدوا فيها ضالتهم، كونها تبعدهم عن الاضطهاد الديني، ولا يضطرون لحماية أنفسهم بطريقة عشائرية أو دينية، وعلى هذا انخرط عدد منهم بشكل مبكّر في العمل السياسي، ما دفعهم إلى العمل لامتلاك مفاتيحه عبر بوابة تعليم مبادئ القراءة والكتابة، الأمر الذي ساهم في فتح منافذ جديدة على المكوّن المحيط بهم، وشكّل أيضاً أساساً للأجيال القادمة للإقبال على التعليم بشكل كبير، الأمر الذي ظهرت نتائجه في إعلان وزارة الثقافة في 2008/10/16 بأن السويداء خالية من الأمية.

3.3 دور أبناء محافظة السويداء في صياغة تاريخ سوريا المعاصر

لطالما كان جبل حوران هو الملاذ الآمن لرجالات الحركة الوطنية السورية، وبخاصة بعد خديعة سامي باشا الفاروقي لزعماء الدروز باتفاقية صلح 1910 حين قام بإعدامهم جميعاً في حي الميدان الدمشقي، إذ بدأ يُنظر لدروز الجبل على أنهم ثوار وطلاب حرية وليسوا عصاة وأشقياء كما كانت تصفهم الصحافة الدمشقية طوال سنوات بتوجيه من الآستانة، في

[42] تتعلق المسألة بالسياق التاريخي للدعوة الدرزية التي بدأت في مصر عام 408/1017هـ وأُغلِقت في عام 428/1037هـ، وبالتالي لم يعد بالإمكان دخول أحد في المذهب الجديد أو الخروج منه على قاعدة "من آمن آمن وقد أغلق الباب".

محاولة لشيطنتهم أمام الشعب السوري. ويعتبر إعدام الزعماء الدروز عام 1911 ومن ضمنهم ذوقان الأطرش والد سلطان، الدفعة الأولى لإعدامات السادس من أيار/مايو 1916 على يد جمال باشا السفاح، في كل من دمشق وبيروت.

ومع بداية الثورة العربية 1916 كان الجبل رسمياً ضمن صفوفها، وقد رُفِع العلم العربي فعلياً فوق بيت سلطان الأطرش في القريا منذ ربيع 1917، أي قبل سنة من رفعه في دمشق. ومنذ ذلك الحين بات جبل حوران أحد أهم دعائم الحركة الوطنية السورية، والمحرك الرئيسي للأحداث اللاحقة بعد دخول القوات الفرنسية وفرض نظام الانتداب كأمر واقع بعد معركة ميسلون 1920. والتي حاول دروز الجبل المشاركة فيها، حيث أرسل سلطان الأطرش 500 مقاتل لمساعدة وزير الحربية يوسف العظمة لكن المعركة كانت قد حسمت قبل وصولهم.

عاد الجبل بعد سنوات لإشعال الثورة السورية الكبرى عام 1925، والتي رغم فداحة تكاليفها (عشرة آلاف قتيل من ستين ألفاً هم عدد سكان الجبل آنذاك، ودمار اقتصادي وزراعي مهول)؛ فإنّ المكاسب السياسية على المدى الطويل كانت كبيرة جداً، حيث أُجبِرت فرنسا على القبول بمعظم صياغة دستور 1928 الذي استمد جوهره من مطالب الثورة بالإصلاح التام والاستقلال السياسي. لقد استطاعت ثورة 1925 تغيير مفهوم المقاومة لدى عموم السوريين، فاحتلال الأرض وتثبيت الانتداب لم يكن كافياً لتمكين ذلك النظام من ممارسة سيطرته، وكان يتوجب على فرنسا الانتصار على المقاومة التي باتت جزءاً من صميم الجسم الاجتماعي السوري، وبخاصة بعد امتداد الثورة إلى دمشق وباقي المحافظات، وحتى إلى لبنان. مرتكزة على جوهرها الوطني العابر للطوائف ومطالبة بدولة مدنية مستقلة.

بعد الاستقلال سرعان ما بدأ العسكر بخطف الدولة ومصادرة الحياة السياسية إثر الانقلابات العسكرية المتتالية. وبقي دروز السويداء بعيدين عنها حتى عام 1954 عندما ترأس سلطان الأطرش مؤتمر حمص الكبير الذي هدد الرئيس أديب الشيشكلي بالعصيان المدني الشامل، ما أجبره على الاستقالة لتعود الحياة البرلمانية من جديد.
ومع بداية الستينيات لعب أبناء الجيل الثاني في السويداء دوراً سياسياً مرموقاً في تاريخ سوريا الحديث. وذلك بعد الازدياد الملحوظ في عدد المتعلمين والمتطوعين في الجيش السوري، إلا أن الصراع على السلطة الذي أخذ شكلاً طائفياً ومناطقياً، أفضى بالنهاية إلى تهميشهم وإبعادهم عن المشهد السياسي بشكل شبه كامل بدءاً من 1970 وحتى اليوم.

3.4 سياسات الهوية في مواجهة الحراك المدني

في 26 آذار/مارس 2011، أي بعد ثمانية أيام من انطلاق حركة الاحتجاجات السلمية التي بدأت في محافظة درعا في 18 آذار/مارس 2011، كانت مظاهرة البداية في محافظة السويداء وبالتحديد في بلدة القريا،[43] مسقط رأس سلطان الأطرش القائد العام للثورة السورية الكبرى. هذا الانتقال السريع للاحتجاجات من الجارة درعا إلى السويداء المختلفة عنها مذهبياً، كان يشي ببداية جديدة من شأنها أن تشكّل إجماعاً سورياً وفضاءً وطنياً، وفرصة لبدء تشكّل مصفوفة (الدولة –

[43] https://www.facebook.com/Sendian.Mag/posts/244185129035277/

المجتمع المدني – الهوية الوطنية – المواطنة... إلخ)، الأمر الذي تعثّر لاحقاً بسبب سياسات النظام القائمة على القمع واستدعاء الهويّات المتصادمة مع الفكرة الوطنية بمضمونها العمومي السلمي الديمقراطي.

ولم يكن عبثاً بدء شرارة الاحتجاجات رغم تواضعها في بلدة القريا، وفي هذا التاريخ بالتحديد (26 آذار/مارس)، فهو يصادف ذكرى وفاة سلطان الأطرش. ولهذه المناسبة رصيد وجداني في نفوس أبناء السويداء لما تمثله من رمزية للتمرد على القمع والتهميش الذي يطال دورهم وتاريخهم، سيما بعد أن بقي النظام لسنوات يمنع أية احتفالية بهذه المناسبة ويقمعها عبر ملاحقة المشاركين والمشاركات بها، وفصل الطلاب والطالبات من المدارس الأمر الذي أدى إلى خروج مظاهرة عمت شوارع مدينة شهبا في 28 آذار/مارس 1987، على خلفية فصل 50 طالبة في مدرسة زيد كرباج للبنات.
لقد أدّت سياسة النظام هذه إلى ترسيخ قناعة قديمة لدى الدروز، بأن النظام يسعى إلى تهميش دورهم النضالي والوطني الذي طالما تفاخروا به.

وتوالت احتجاجات عام 2011 وتركّزت بشكل أساسي في مدينتي السويداء وشهبا وبلدة القريا، وبالرغم من تواضع حجمها؛ فإنها واكبت الحراك السلمي الذي عم معظم أرجاء الجغرافيا السورية. مرتكزة على المقدمات الأخلاقية ذاتها للانتفاضة، مسترشدة ببوصلة الخطاب الوطني الجامع عبر استخدام الشعارات التي شكّلت عناوين الحراك آنذاك، مثل: "الشعب السوري واحد"، وشعارات التضامن مع المحافظات السورية المنكوبة. وقد دفع ذلك بالنظام عبر أجهزته الأمنية إلى قمع الاحتجاجات واتباع سياسات مختلفة عن تلك التي استخدمها في مناطق الحراك ذات الغالبية السنية، مستنداً إلى بروباغندا أسها: (المؤامرة الكونية – حامي الأقليات – جهوية الحراك – عصابات إرهابية). واتّبع سياسة تأليب أبناء المجتمع الواحد بعضهم ضد بعضهم الآخر، لتكون ممارسة القمع بنكهة محلية، وذلك باستخدام أشخاص مدنيين من أبناء المحافظة وتجييشهم لقمع الاحتجاجات. حيث حرصت الأجهزة على أن لا تظهر في مشاهد القمع بشكل مباشر، خشية تطوّر ردود الفعل، وخاصة في مناطق الأقليات، الأمر الذي من شأنه أن يدحض روايته. وهكذا اختارت الأجهزة الأمنية العناصر المشاركين في قمع الاحتجاجات من القاع الاجتماعي، مستثمرة فقرهم وبطالتهم تارةً وتهميشهم الاجتماعي وجهلهم تارةً أخرى، فضلاً عن ميول بعضهم الإجرامية، ولا سيما أصحاب السوابق الخارجين من السجون بموجب مرسوم العفو الرئاسي[44] رقم (61) بتاريخ 2011/5/31. حيث تبين فيما بعد بأن أحد مآلات هذا المرسوم هي إشاعة الفوضى وخلخلة البنية الأخلاقية والمجتمعية. ومن الجدير بالذكر أن العدد الذي شمله العفو قارب 64000 شخص على كامل الأراضي السورية، وذلك حسب تقرير عرضته الفضائية السورية حينها.

نجم عن تلك السياسات تصدّع وشرخ داخل المجتمع، وبدأت نذر النزاعات والاحتراب الأهلي تلوح في الأفق على مستويات عدة، هي:

- داخل البيت الدرزي نفسه، على خلفية الخلاف السياسي القائم على ذهنية الإقصاء والتخوين.
- داخل المحافظة بين التنوعات السكانية الطائفية، وبشكل خاص مع عشائر البدو.

[44] https://bit.ly/353x5BA

- مع محيط المحافظة السني، ومع محافظة درعا على وجه التحديد، وسط ترويج خطاب فتنة كانت إحدى مستنداته خطبة شـــيخ من درعا يدعى عبد الســـلام الخليلي،[45] الذي اتهم من على منبر جامع في مدينة الحراك في 2011/4/24، أي في الأيام الأولى للثورة؛ النسـاء الدرزيات بأنهن سـبب الفتنة في درعا، وطعن بشـرفهن واتهم سلطان الأطرش بأنه سرق الثورة السورية الكبرى، فقام الأمن السوري على الفور باقتناص هذه الخطبة، والإيعاز إلى الفرق الحزبية والأمنية في القرى والبلدات في الســويداء بعرضـــها على الأهالي مع تحريف خطير مفاده أن القائل هو الشـيخ الصـياصـنة. وردّت الفعاليات الثورية في درعا بالكشـف عن حقيقة هذا الشـيخ وإثبات عمالته للنظام وإصدار بيان[46]عن علماء الدين في حوران للتبرؤ منه، ولكن الأوان كان قد فات.

4 المجتمع المدني (التحديات – الدور)

4.1 تحديات المجتمع المدني في محافظة السويداء

إن شـرط نشـوء المجتمع المدني في أية دولة مرتبط ارتباطاً عضـوياً بمفاهيم أخرى لصـيقة به من حيث أطرها المرجعية الفكرية، أو من حيث علاقات التداخل التي بينها في الممارســـة الفعلية. تلك المفاهيم هي الدولة الحديثة (دولة الحق والقانون)، والديمقراطية وحقوق الإنسان.

إن هذه الشروط غير متوفرة في بنية الدولة الأمنية وتركيبتها، مما يجعل من هذه الحال أهم تحديات نشوء المجتمع المدني السوري وتشكّله بشكل عام. إذ إن مفهوم العمل المدني لا يتماشـى مع بنية السلطات المستبدة والجائرة وسياساتها القائمة على ترسـيخ الانتماءات الأولية (الانتماءات ما قبل الوطنية)، وهنا يكمن التحدي الأبرز لولادة عسـيرة اسـتفادت من الخلل الحاصـل في أركان السـلطة وركائزها، والانحسـار الجزئي لدور السـلطة الأمنية منذ بدء حركة الاحتجاجات وصـولاً لمرحلة الصـراع المركب[47] الذي تمرّ به سـوريا منذ أكثر من ثماني سـنوات، ونسـتطيع القول إن ضـيق مسـاحة العمل المدني في محافظة السويداء أو اتساعها ارتبطت بشكل عكسي مع الانتصارات والمكاسب العسكرية والسياسية للنظام وحلفائه. وبناء عليه نستطيع تقسيم قوى العمل المدني إلى قسمين:

1. منظمات مرتبطة بالنظام أو مرخّصة وتعمل بإشرافه:

– **<u>الجمعيات الخيرية التقليدية</u>** التي ينحصـــر عملها بجمع التبرعات وتوزيعها على المحتاجين، إذ تتســـم أدواتها بالبدائية وتغيب عنها الأدوات العلمية في التخطيط والتقييم ودراســـة الاحتياجات، وتغيب عن برامجها ومشـــاريعها مشـــاريع التنمية الاجتماعية والاقتصـادية والتمكين. وتفتقر لمنظومة السـياسـات والإجراءات المالية ومكافحة الفسـاد وسـياسـات تضـارب المصـالح ومدونات السلوك. ويعكس تشكيل إدارتها التوازنات العائلية ضمن نطاق المجتمع الذي تعمل به، وغالباً ما يتسم

[45] https://www.youtube.com/watch?v=PqpjqycBpjQ

[46] https://bit.ly/36oCIdS

[47] يوصف الصراع في سوريا بأنه "صراع مركب" بسبب تداخل مستويات محلية وإقليمية ودولية فيه.

عملها بالمحاباة والمحسوبيات. وهي تحت تهديد دائم بالحل بقرار مباشر من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل من دون الرجوع للقضاء أو أية آليات قضائية (تقديم الطعون)، وذلك وفق قانون الجمعيات رقم 39 لعام 1958 والمعدل بموجب المرسوم التشريعي رقم 224 لعام 2012.

وعلى الرغم من أنه من ضمن خطوات الترخيص بموجب القانون أن تتقدم بالطلب لوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل؛ ولكن من حيث الممارسة، يتم التقدّم بالطلب إلى ثلاثة أجهزة أمنية، هي أمن الدولة والأمن السياسي والأمن العسكري. وتتوزع هذه الجمعيات على عموم مساحة المحافظة، لكن أبرزها في المدن والبلدات الرئيسية مثل جمعية شهبا الخيرية، وجمعية قنوات الخيرية، وجمعية الكفر الخيرية، وجمعية أم الزيتون، وجمعية الريان الخيرية... إلخ. و "لمع في السنوات السابقة نجم جمعية البستان العائدة لرجل الأعمال رامي مخلوف والتي انتشر نشاطها في مناطق سيطرة النظام، والمعروف عنها أنها كانت تستأثر بالمساعدات الإنسانية من المنظمات الدولية وتستثمرها في شراء الولاءات ودعم عناصر الميليشيات المسلحة الموالية للنظام، لكن تمّ حلها مؤخراً بسبب خلافات بين رامي مخلوف والأسد وفق بعض التسريبات".[48]

– **<u>الجمعيات الاختصاصية</u>**، وهي الجمعيات المختصة بمجال محدد من العمل الإنساني أو المجتمعي مثل جمعية الوفاء للمعوقين، وجمعية أصدقاء مرضى السرطان، وجمعية المسنين، ودار الرعاية الاجتماعية، وجمعية أصدقاء البيئة، وجمعية العاديات (مهتمة بالتراث)، وجمعية أصدقاء الموسيقا، وجمعية البراعم (الطفولة). وثمّة جمعيات تعمل في التنمية المجتمعية مثل جمعية تنمية المجتمع المحلي، والغرفة الفتية الدولية JCI، ومؤسسة كرامة للتنمية الاجتماعية (منح تعليمية)، ودائرة العلاقات المسكونية والتنمية (GOPA–DERD) التابعة لبطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، والأمانة السورية للتنمية وهي الجهة الأكثر حصولاً على الامتيازات والدعم والتمويل بحكم قربها من النظام، سيما وأن أسماء الأسد تشغل منصب رئيس مجلس إدارتها.

ومن نافل القول إن الجمعيات تلك تعرف نفسها على أنها جمعيات أهلية، وذلك لعدة أسباب أهمها عدم وجود مصطلح "مدني" ضمن قانون ترخيص الجمعيات السوري، وخشية أن تحسب على لجان إحياء المجتمع المدني المرتبطة بربيع دمشق[49] عام 2000، المشروع الذي تم إجهاضه وقمعه من قبل النظام السوري، بالإضافة لما يتم ترويجه من قبل مؤسسات النظام عن منظمات المجتمع المدني واتهامها بالعمالة للخارج.

2. منظمات مستقلة عن النظام:

بدأت تتشكل بعد عام 2011 مواكبة للانتفاضة السورية، وواجهت جملة من التحديات أهمها:

- **التحديات الموضوعية:**

1. التضييق على الناشطين والناشطات والملاحقات الأمنية والاعتقالات وإصدار إجراءات منع السفر بحقهم، حيث طالت إجراءات منع السفر خلال عام 2019 أكثر من 50 ناشطاً وناشطة من المحافظة. وهنا تجدر الإشارة إلى

[48] http://www.syriahr.com/?p=337452

[49] https://carnegie-mec.org/syriaincrisis/?fa=48518

أن منع السفر طال أيضاً لجنة التفاوض بخصوص المخطوفين والمخطوفات لدى داعش والتي تشكلت بقرار من مشيخة العقل.

2. تأليب المجتمع ضدهم من خلال اتهامهم بالعمالة وتنفيذ أجندات خارجية.
3. ضعف مصادر التمويل من المنظمات المانحة طيلة السنوات السبع السابقة بسبب ضعف الوصول والتواصل وبناء العلاقات، وقد تحسّن التمويل نسبياً في السنتين الأخيرتين.
4. الصورة النمطية لمنظمات العمل المدني في المناطق الخاضعة لسيطرة النظام من قبل النشطاء والمنظمات والتيارات السياسية في دول اللجوء والمناطق الخارجة عن سيطرة النظام، والتي مفادها أن كل نشطاء الداخل محسوبون على النظام ويجسدون موقفه.

- **التحديات الذاتية:**

1. ضعف القدرات والخبرات والتخطيط، مما انعكس على بناء هياكل تنظيمية متناسبة مع طبيعة عمل المنظمات وطموحاتها.
2. ضعف الثقافة التشاركية بين المنظمات لأسباب ذاتية أو شخصية أو تنافسية.
3. ضعف بناء رأس المال المجتمعي، والاستئثار بالعلاقة مع المنظمات المانحة.

4.2 الأدوار التي لعبها المجتمع المدني في محافظة السويداء

على الرغم من التحديات سالفة الذكر؛ فإنّ المجتمع المدني استطاع القيام بالأدوار الآتية:

4.2.1 الموقف من فوضى السلاح

على الرغم من أن محافظة السويداء لم تكن طيلة سنوات الصراع ساحة للاقتتال العسكري باستثناء بعض الحوادث المعدودة على أطرافها؛ فإنّ ظاهرة "فوضى السلاح" تصدرت المشهد اليومي لأبناء المحافظة، حيث باتت هذه الظاهرة تقلقهم وتنذر بتهديد السلم الأهلي وإحداث شقاق كبير في العلاقات الاجتماعية، الأمر الذي دفع بمنظمات المجتمع المدني وبعض المهتمين بالشأن العام إلى التحذير من مآلات هذه الظاهرة،[50] كالبيان الصادر عن "هيئة محامي السويداء من أجل الحرية" بتاريخ 2012/11/19 الذي ورد فيه: "إن توزيع السلاح بهذه الطرق غير القانونية وغير المشروعة هو جرم موصوف يعاقب عليه القانون بأشد العقوبات، لمن حمله ووزعه ومن حرّض وشجّع على استلامه... وإن الهدف منه ليس الحفاظ على السلم الأهلي بل تهديده، وليس تحقيق الأمن والأمان إنما الإخلال بهما، وليس الدفاع عن النفس بل الاعتداء على الآخرين".

[50] https://bit.ly/35cte57

4.2.2 حماية السلم الأهلي

استشعر الناشطون وبعض قادة الرأي المجتمعي نذر الاحتراب والنزاعات، فقاموا بدورهم كإجراء وقائي مبكّر بتشكيل عدد من المنظمات والهيئات التي تُعنى بحماية السلم الأهلي وفضّ النزاعات، وكان من أبرزها:

- **الهيئة الاجتماعية للعمل الوطني بالسويداء**[51]

تأسست في مطلع عام 2012، معلنة عن أهدافها في العمل على السلم الأهلي ووحدة المجتمع السوري بكافة فئاته وطوائفه. وبالرغم مما تعرّضت له من محاولات لشق صفها بفعل الأجندات الأمنية التي أمعنت في إثارة الفتن والتخريب في صفوفها؛ فإنها التزمت منذ تأسيسها وحتى يومنا هذا خطاباً سورياً وطنياً جامعاً عابراً للانتماءات ما قبل الوطنية، وتجسّد ذلك بمتابعتها اللصيقة لمجريات الحدث الدامي وتواصلها مع كل الفعاليات وقادة الرأي المجتمعي سواء داخل المحافظة أو خارجها، وبشكل خاص محافظة درعا، حيث عملت على ربط النسيج الاجتماعي ودرء الفتن المحاطة فيه، لتكون بمثابة صمام أمان يقي من الاحتراب الأهلي ويرصد احتمالية نشوب النزاعات، ويتوسّط بين أطرافها، ويصدر البيانات التي تنبذ التفرقة والعنف وخطاب الكراهية.

وتجدر الإشارة إلى أن الهيئة الاجتماعية للعمل الوطني في السويداء، تضم أكثر من سبعمئة شخصية ضمن هيكلية إدارية مشكلة من 5 فرعيات تتوزع جغرافيا على مساحة المحافظة: فرعية السويداء، فرعية شهبا وريفها، فرعية صلخد وريفها، الفرعية الغربية، الفرعية الشرقية. ويترأس الهيئة حالياً جمال هنيدي وهو أحد الوجهاء الاجتماعيين.

وتنتخب كل فرعية نسبة 10% من عددها الكلي أعضاء للأمانة العامة البالغ عددهم 55 عضواً، وتنتخب كل فرعية من الفرعيات الخمس رئيساً للفرعية من أعضاء أمانتها، في حين يتم انتخاب رئيس الهيئة من أعضاء الأمانة العامة في اجتماع الأمانة العامة، ثم يتم انتخاب أعضاء مجلس الهيئة وعددهم 10، حيث يتولى نصفهم رئاسة الأمانات الخمس. ويكون كل رئيس أمانة عضواً بالمجلس بدون انتخاب، إلى جانب خمسة أعضاء يتم انتخابهم مباشرة من الأمانة العامة، ومع الرئيس يصبح عدد أعضاء مجلس الهيئة 11 عضواً. وفي الاجتماع الأول للمجلس يتم انتخاب رئيس الهيئة وأمين السر ورئيس لجنة العلاقات العامة ورئيس لجنة الثقافة والإعلام ورئيس لجنة التواصل. وتتم عملية الانتخاب بشكل ديمقراطي وفق نظام الأغلبية المطلقة.

- **لجان المواطنة والسلم الأهلي في محافظة السويداء**

تأسست في 2011/11/22 بهدف نشر ثقافة الحوار وتقبّل الآخر وحماية السلم الأهلي والتدخّل لفض النزاعات والعمل على تبديد الشائعات ونبذ خطاب العنف الكراهية واستبداله بخطاب وطني جامع لكل السوريين، وقد ساهمت في العديد من عمليات التفاوض في عمليات الخطف والخطف المضاد بين محافظتي درعا والسويداء، كما قامت بإصدار العديد من البيانات التي تدعو لحماية السلم المجتمعي والأهلي، وتفويت الفرص على الذين حاولوا تجييش المدنيين وزجهم في الصراع

[51] https://www.facebook.com/Alhay2aAl2jtema3ya

المسلح كما حدث في أكثر من واقعة، ولعل أبرزها معركة مطار "الثعلة" العسكري 2015/6/11، وبيانها الصادر بتاريخ 2018/8/24.[52]

4.2.3 الدور الإغاثي (النزوح وآثاره)

عند بدء موجات النزوح في أواسط عام 2012 عمد النظام إلى محاولة عزل النازحين عن المجتمع المحلي في أماكن إيواء تعود ملكيتها لمؤسسات الدولة مثل معسكر طلائع البعث في قرية رساس وغيره، إلا أن محاولته تلك باءت بالفشل لعدة أسباب أهمها عدم توفر أماكن كافية لاستيعاب موجات النزوح، بالإضافة إلى قيام ناشطي الإغاثة في مدينة شهبا بإرسال تهديدات تفيد بعودة الحراك إلى الشارع إذا ما تم إجبار النازحين على ذلك. ولا يمكن إغفال الاعتبارات القيمية والأخلاقية المتعلقة بإكرام الضيف وحماية الدخيل لدى أهالي السويداء، والتي تشكل جزءاً من هويتهم الثقافية والأخلاقية وجزءاً من الهوية الثقافية للسوريين والمنطقة. وثمة حوادث في التاريخ تدل على ذلك يعود أحدها إلى نهاية عهد العثمانيين عندما استقبل أهل المحافظة قرابة عشرين ألف شخص من الهاربين من المجاعة.

اقتصر النزوح في البداية على بضعة عائلات، بسبب تخوف أبناء المناطق الساخنة من القدوم إلى السويداء، ويعود ذلك إلى عدة أسباب منها:

1. الصورة المسبقة التي كانت سائدة، ومفادها أن المحافظة تقف بوجه الحراك الشعبي وبالتالي لا ترحب بأبناء المناطق التي قامت به.
2. التوجس من الآخر المختلف دينياً أو مذهبياً، والذي يشي بحجم الشرخ الاجتماعي المتجذر في المجتمع السوري.
3. الخوف من الملاحقات الأمنية على اعتبار أن المحافظة تقع تحت سيطرة الحكومة السورية.

وسط ازدياد وتيرة العنف في المحافظات المجاورة لمحافظة السويداء، بدأت أعداد النازحين بالارتفاع ليتجاوز العدد عشرات الآلاف، ولقي النازحون الترحيب من غالبية شرائح المجتمع على تنوع ميولهم السياسية، على الرغم من الصورة المرسومة بذهن أبناء المحافظة تجاه باقي المحافظات نتيجة الشرخ الاجتماعي ذاته، وعلى الرغم من تخوفهم من أن أحداً سينافسهم على رزقهم أو أن تغييراً ديمغرافياً سيضعف تماسكهم إذا ما حدث.

لكن شعورهم بالقدرة على إمساك زمام أمورهم ونظرتهم للوافد كضيفٍ لن يصادر منهم قرارهم أو ينافسهم على مصادر رزقهم وجلها من الزراعة أو المغترب؛ جعل منهم واسعي الصدر لحد جيدٍ تجاه استقبال النازحين، خاصة وأنهم اعتبروهم طالبي أمانٍ لديهم. في حين كانت لدى البعض ريبة تجاه تحوّل بعض الوافدين إلى منافسين على المهن الحرفية والورش اليومية، بينما رأى التجار وأصحاب الملك أن الوافدين قد زادوا من الطلب في السوق وهو ما ساهم في رفع أسعار الإيجارات لاحقاً مثلاً.

[52] https://www.facebook.com/baitebaitac/posts/460148087745205

ومن الملفت أنه بعد فترة ليست بالطويلة، وعندما بدأ يتبدد التوجس المتبادل وبدأ النازحون يشعرون بالأمان؛ بدأت تنشأ علاقات بينهم وبين المجتمع المحلي، وبدأ يحدث تأثير متبادل، حتى أن بعض النازحين أصبحوا أكثر انفتاحاً على عادات المنطقة وتقاليدها، وبعض النساء النازحات القادمات من مجتمعات محافظة أو متشددة صرحن بأنهن استطعن الحصول على مساحات من الحركة والحرية الشخصية، أكبر من تلك التي كنّ يتمتعن بها في مناطقهنّ الأصلية. ويجدر بالذكر أن نسبة الخلافات أو التعديات أو النزاعات التي سُجلت، كانت ضمن معدل الخلافات التي تنشأ داخل المجتمع المحلي نفسه.

لقد ساهمت المبادرات في تبديد التوجس، حيث بدأت بشكل فرق ومجموعات من أبناء المحافظة لإغاثة الهاربين من الموت، وسط تضييق من الأجهزة الأمنية، وملاحقة للناشطين واعتقال بعضهم وتأليب المجتمع ضد النازحين، مستثمرة صناديق الموت التي تحمل أبناء المحافظة الذين يخدمون في صفوف الجيش، والعائدة من جبهات القتال ومن المناطق نفسها التي قدم منها النازحون. الأمر الذي جعل العمل الإغاثي أكثر صعوبة وخطورة، إذ ترافق أيضاً مع قيام عدد من ناشطي الحراك الثوري، وبالذات تنسيقيات الثورة وفرق العمل المدني بإرسال المساعدات الطبية والإنسانية والمواد الغذائية ومستلزمات الأطفال إلى المناطق المحاصرة، والتي لم تقتصر على المحافظات المجاورة بل تعدى ذلك لتصل إلى محافظات حماة وحمص، حيث تم إنشاء مستشفى ميداني في مدينة حمص يحمل اسم "مستشفى السويداء الميداني"، استهدفته قوات النظام بالقصف أكثر من مرة.

ويتمثّل الجانب الأبرز والأكثر تنظيماً للدور الإغاثي بما قامت به لجان المواطنة والسلم الأهلي من إطلاق حملة إغاثة تحمل اسم "بيتي أنا بيتك"، تحولت فيما بعد إلى منظمة عمل مدني، تحت الاسم نفسه "بيتي أنا بيتك"،[53] رفعت شعار "حق الضيف وحق الوطن"، وهنا تجدر الإشارة إلى أن فريق المتطوعين والمتطوعات والذي تجاوز المئة؛ عمل لثلاثة أشهر دون أي تدخّل من أية منظمة إنسانية، في ظل تضيق أمني واعتقالات طالت عدداً منهم.
لقد اعتمدت "بيتي أنا بيتك" في تمويل عملها بشكل كامل على دعم المجتمع المحلي وأبناء المحافظة في دول الاغتراب.
وبالإضافة إلى العمل الاغاثي؛ قامت بإطلاق العديد من المبادرات[54] التي ساهمت بجسر الهوّة بين المجتمع المحلي والنازحين، الأمر الذي ساهم إلى حدّ كبير في عملية الدمج المجتمعي وتبديد الصور المسبقة والنمطية عن المجتمع النازح والمضيف.

4.2.4 في المناصرة وكسب التأييد

1. إيصال صوت المجتمع المحلي إلى صناع القرار عبر تمثيل عدد من منظمات المجتمع المدني من محافظة السويداء (بيتي أنا بيتك – توليب – بلدي) في غرفة دعم المجتمع المدني في جنيف، وفي اللقاءات الإقليمية، وفي الفعاليات

[53] https://www.facebook.com/groups/136231493184654/
[54] https://www.youtube.com/watch?v=GpNHRqYPYP4

الجانبية التي تعقد على هامش مؤتمر بروكسل (اللقاء الوزاري)، والمناصرة في قضايا عدّة على المستويين الوطني والمحلي.

2. إصدار العديد من أوراق تقدير الموقف كان أهمها "شبح داعش يعود إلى السويداء" على إثر مجازر 2019/7/25، ودعمها عبر المنصة المدنية السورية.[55]
3. حملة[56] ضد "التعفيش"،[57] تم إطلاقها بعد سيطرة قوات النظام على محافظة درعا وبدء عمليات السلب والنهب واستباحة أرزاق المواطنين، وحملت هذه الحملة هاشتاغات (#لا_للتعفيش، #لا_تعفش_شايفينك، #لا_تشتريه_صاحبه_عم_يبكي_عليه). وكان من مفاعيل هذه الحملة قيام مشيخة العقل وحركة رجال الكرامة وكبرى عائلات المحافظة ممثلة بزعاماتها بإصدار بيانات حرّموا فيها شراء المسروقات أو بيعها في محافظة السويداء، وهددوا المشاركين في التعاطي أو الترويج أو المتاجرة بالمواد المسروقة بالتبرؤ.
4. حملة ضد الإتجار بالبشر،[58] أطلقتها بالتشارك منظمتا توليب وبيتي أنا بيتك ومجموعة من الناشطين، على خلفية اكتشاف شبكة للإتجار باللاجئات السوريات في لبنان.
5. تنظيم حملات إعلامية واعتصامات نسائية واعتصامات أهلية مفتوحة للضغط على النظام للعمل على إطلاق سراح المخطوفين والمخطوفات لدى تنظيم داعش، وسط استياء شعبي من مماطلة النظام في متابعة القضية ما دفع النظام إلى إعادة تحريك الملف وإطلاق سراحهم.
6. حملة بمناسبة اليوم العالمي للشباب حملت عنوان #أنا_أقف_مع_الشباب بالشراكة بين منظمة بيتي أنا بيتك ومنظمة نسيج من ريف دمشق.
7. إعداد مقالات وتحقيقات وتقارير ذات صلة بالأوضاع الميدانية والإنسانية، وترصد التغيرات والانتهاكات. وتم نشرها عبر الصحافة الإلكترونية والإعلام البديل.[59]

4.2.5 في الوساطة والتفاوض وحلّ النزاعات

- وقف عمليات رحيل البدو من مدينة شهبا بعد قتل أحد أبنائهم وتصاعد خطاب الفتنة والثأر، من خلال قيام لجان المواطنة والسلم الأهلي بإقامة إفطار ضم قادة مجتمعيين ورجال دين من الحضر (الدروز) والبدو (السنة)، والعمل على وأد الفتنة والتبرؤ من مفتعليها، والوقوف معاً لمواجهة كل التهديدات التي تقوض العيش المشترك. وتكرر هذا المشهد في أحداث مشابهة على امتداد المحافظة.

---

[55] https://bit.ly/2PhAjdR

[56] https://www.facebook.com/100009848946423/videos/648663028805323/

[57] التعفيش: مصطلح للدلالة على عمليات السلب والنهب التي تطال المناطق التي تسيطر عليها القوات النظامية والميليشيات الموالية لها، ويعقبها عمليات بيع هذه المسروقات في المناطق الخاضعة النظام.

[58] https://bit.ly/2P01yeb

[59] https://bit.ly/2PlYRm8

- قيام مشيخة العقل (جربوع والحناوي) بتاريخ 2018/8/21 بتشكيل لجنة للتفاوض[60] مع داعش بشأن ملف المختطفين والمختطفات من نشطاء المجتمع المدني، الأمر الذي يشي بالثقة بدور النشطاء المدنيين في المجتمع وعند السلطة الدينية.

4.2.6 مشاريع سبل العيش

يعتبر هذا المجال هو المجال الأهم في ظل الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها أبناء المحافظة، وليس هنالك إلا مشروع واحد بهذا الخصوص قامت به منظمة بيتي أنا بيتك بالتشارك مع برنامج التكافل الاجتماعي التابع لوقف عين الزمان – مشيخة العقل، حيث تم تقديم 55 منحة[61] "سبل عيش" لمشاريع صغيرة استهدفت الأسر التي فقدت معيلها جزئياً أو كلياً جراء هجمات داعش على الريف الشرقي لمحافظة السويداء.

4.2.7 التعليم والأطفال

- مشروع الصفوف العلاجية للأطفال المتسربين من المدارس بسبب الحرب، الذي نفذته منظمة بيتي أنا بيتك على مدار عامي 2014 و2015.
- المنح الشهرية لطلاب الجامعات، ونفذته كل من التكافل الاجتماعي، بيتي أنا بيتك، صفحة مساعدة الطلاب المحتاجين في محافظة السويداء.
- فريق سيار المعني بالأطفال المشردين (أطفال الشوارع).

4.2.8 المرأة (تمكين – مناهضة العنف)

- تعتبر منظمة توليب لدعم المرأة والطفل الأبرز في هذا المجال، إذ نفذت عدة مشاريع للنساء بهدف تمكينهن قانونياً وحقوقياً وسياسياً، وقدّمت خدمات للاستشارات القانونية المجانية للنساء المعنّفات. إلا أن هذا الإجراء قوبل برفض شديد من نقابة المحامين وتضييق من الأجهزة الأمنية.
- حملات لمناهضة العنف ضد المرأة، أبرزها حملة تاء مربوطة، التي استمرت 16 يوماً بمناسبة احتفالية "16 يوماً لمناهضة العنف ضد المرأة"، التي قامت بها منظمة توليب بالشراكة مع عدد من المنظمات.

---

[60] https://bit.ly/2P8uvEE

[61] https://www.facebook.com/2022163474565283/videos/427162661313349/?v=427162661313349

4.2.9 التماسك المجتمعي وبناء السلام

تَمثّل بمجموعة من المبادرات التي واكبت الألم السوري، وكانت بمثابة رسائل تؤكد على الهوية السورية الجامعة والعيش المشترك. وسنذكر منها على سبيل المثال:

1. موقف نقابة محامي السويداء كان أول تحرك نقابي في سوريا في تاريخ 2011/3/27، وخلال اعتصامهم أطلقوا بياناً[62] دعا إلى عدة مطالب أهمها: رفْع الطوق الأمني المفروض على مدينة درعا، والتحقيق الجاد والشفاف في الحوادث التي ترافقت مع إطلاق الرصاص الحي على المواطنين العزّل، والسماح لوسائل الإعلام كافة بممارسة دورها بما يتلاءم وحرية الإعلام، ورفْع حالة الطوارئ والأحكام العرفية وإلغاء المحاكم الاستثنائية، وكفالة الحق الدستوري بالتظاهر السلمي، وإصدار عفو خاص عن معتقلي الرأي كافة، وتحديد صلاحيات الأجهزة الأمنية، وإلغاء رقابتها على التعيينات للوظائف العامة، وتشكيل لجان قانونية ومهنية متخصصة لإعادة النظر بالقوانين التي تخالف المبادئ والأعراف الدستورية ليصار إلى إلغائها أو تعديلها.
2. العمل الإغاثي، حينما كسر النشطاء الحصار في درعا والزبداني وحمص لإيصال المساعدات الانسانية.
3. مبادرة باسم أهالي السويداء لتقديم إفطار لـ 1000 صائم في مخيمات اللجوء في لبنان.[63] وكانت المبادرة بتنسيق بين بيتي أنا بيتك ومبادرة سكبة رمضان، والتي كانت تحمل عنوان "رمضان كريم والسلام لسوريا".[64]

ولا بد من الإشارة إلى أنه ومنذ 2013 بدأ العمل المدني يأخذ منحى أكثر تخصصاً وأكثر منهجية ومهنية، حيث بدأ التركيز بشكل خاص على الدعم النفسي للأطفال والتعليم والمشاريع التي تستهدف اليافعين وتمكين المرأة والدمج المجتمعي، مع استمرار عمل الاغاثة وفق الإمكانيات والموارد المتوفرة، حيث تشكلت عدة مبادرات وفرق ومنظمات منها على سبيل المثال لا الحصر:

- منظمة جذور سوريا:[65] التي تنشط في مجال الثقافة والتوعية وبناء القدرات والاهتمام بالشباب، وقد قام النظام بإغلاق مقرها بالشمع الأحمر في أكثر من مناسبة، الأمر الذي أثار حفيظة المجتمع تجاه تراخي السلطات أمام حالة الانفلات الأمني وارتفاع معدلات الجريمة، واستقوائها على منبر ثقافي.
- فريق شير: المهتم بالشباب واليافعين وبناء القدرات والريادة المجتمعية وأهداف التنمية المستدامة.
- منظمة توليب لدعم المرأة والطفل:[66] التي تهتم بالجانب التوعوي في حقوق الإنسان وبتمكين النساء قانونياً وسياسياً وثقافياً، ومناهضة العنف القائم على النوع الاجتماعي، ورصد الانتهاكات وتوثيقها، وفض النزاعات، واعتماد برامج نزع السلاح والتسريح وإعادة الدمج ومكافحة الخطاب العنفي.
- لمة محبة: المهتمة بنبذ خطاب الفرقة المجتمعي واستبداله بخطاب المحبة، تعمل في مجالات البيئة والمبادرات المجتمعية.

---

[62] https://www.orient-news.net/ar/news_show/6992

[63] https://bit.ly/2YomE8V

[64] https://bit.ly/2YnnPFQ

[65] https://www.facebook.com/jozoursw/

[66] https://www.facebook.com/tulip.wk

- مركز الديمقراطية والحقوق المدنية: الذي يهتم بالجانب الحقوقي للمرأة.
- المنظمة العربية لحقوق الإنسان: التي تهتم برصد الانتهاكات وتوثيقها في مجال حقوق الانسان.
- أبناء السنديان: تعمل على مكافحة التحطيب الجائر جراء أزمة وقود التدفئة والقيام بحملات تشجير.
- فريق بلدي: يسعى إلى بناء التحالفات، وإقامة مشاريع لبناء السلام.
- برنامج التكافل الاجتماعي: الذي يتبع مقر عين الزمان – مشيخة العقل، وهو معني بمساعدة المحتاجين من أبناء المحافظة وتقديم المنح الدراسية للطلاب، وتأمين فرص عمل للنساء المحتاجات.

5 خاتمة

لعل حالة الحياد النسبي التي عاشتها السويداء إزاء الحرب السورية لم تأتِ بموجب إجماع مجتمعي، بقدر ما كانت نتيجة تفاعل بين القوى المتباينة والمتعاكسة في الجهة والمتساوية في القوة نسبياً ضمن خريطة القوى الفاعلة في السويداء. هذا الحياد الذي شمل المواقف والتحولات المفصلية لمسيرة الأحداث السورية منذ آذار/مارس 2011، بدءاً من المواقف من الانتفاضة السورية وتحولاتها، ووصولاً إلى المواقف من الحرب وأطرافها والتغيرات التي طرأت على موازين الصراع عبر مراحلها.

وقد أخفى المشهد الظاهر لحالة الحياد خلفه الكثير من التحولات في مراكز القوة، بدءاً من تعاظم دور الزعامة الطائفية على حساب انحسار دور الزعامتين السياسية والعشائرية، وذلك من خلال الدور البارز الذي لعبته مشيخة العقل رغم تناقضاتها الداخلية وضعفها. وفي المقلب الآخر فإن هذه التناقضات الداخلية وهذا الضعف في مشيخة العقل إلى جانب تراجع دور السلطات والأجهزة التنفيذية وما نجم عنه من فلتان أمني داخلياً، وتهديدات من محيط المحافظة؛ افسح المجال لنشوء قوى جديدة من فصائل عسكرية وميليشيات وعصابات مسلحة، وسط انكشاف على تدخّلات إقليمية روسية وإيرانية ولبنانية. في ظلّ تعثّر محاولات أبناء المحافظة إنتاج قيادات سياسية خاصة بها، رغم تاريخها الطويل الحافل بالقيادات.

إن محافظة السويداء تعيش حالة من الفوضى والقلق وتراجع في مصادر الدخل، وتدهور في الأوضاع المعيشية وارتفاع في معدلات التضخم وانتشار لاقتصاد الظل وارتفاع في معدلات الجريمة ومعدلات البطالة نتيجة لندرة فرص العمل ومحدودية حركة الشباب المتخلفين عن الالتحاق بالخدمة العسكرية أو المفصولين من العمل للسبب ذاته أو لأسباب سياسية، ويضاف إلى ذلك تراجع غير مسبوق في مستوى التعليم والصحة، وسط عجز النظام عن تأمين بدائل اجتماعية وحلول اقتصادية لمنطقة مرّت الحرب بجوارها فأرهقتها.

وبالتزامن مع التحولات التي مرّت بها المحافظة وخلقت فجوات واحتياجات مجتمعية وعزّزت أخرى؛ بدأ المجتمع المدني بالتشكّل عبر الإسهام بملء الفجوات وتلبية الاحتياجات، شاقّاً طريقه بصعوبة لمقاربة هذا المفهوم من قبل مجموعات تعمل خارج نطاق العلاقات والروابط الأولية للمجتمع وبشكلٍ طوعي، وتسعى إلى تأسيس المجتمع المدني وتفعيل دوره في ظلّ غياب شبه تامّ لمقوماته وشرطه الموضوعي المتمثّل بفضاء الحرية ودولة المواطنة والقانون، وفي ظلّ حضور طاغٍ لقوى الحرب على حساب الفعل المدني القادر على تجاوز جغرافية الصراع وتقديم الحلول المبتكرة، بوصفه، أي هذا الفعل، الحامل الرئيس لإحداث التغيير وإزالة أثار الحرب وبناء السلام والتماسك المجتمعي.

Find out more about the
Conflict Research Programme

Connaught House
The London School of Economics
and Political Science
Houghton Street
London WC2A 2AE

Contact:
Anna Mkhitaryan, Programme Manager
Tel: +44 (0)20 7849 4631
Email: Intdev.Crp@lse.ac.uk

lse.ac.uk/conflict

This material has been funded by UK aid from the UK government; however the views expressed do not necessarily reflect the UK government's official policies.